

## «الهدف الاستعماري للحملة الفرنسية على مصر» «والسياسة الإسلامية لبونابرت»

على الرغم من كل ما نشره أولئك المنتصمون إلى بلدهم ودينهم من كتابات ووثائق تدين بدعة - إن لم تكن صفاقة - الأحتفال بالحملة الفرنسية على مصر، فما زلنا نطالع أصوات بعض المدافعين عن هذه الجريمة التاريخية التي تعد من أكبر الكوارث التي أصابت مصر في العصر الحديث، إن لم تكن أكبرها على الإطلاق؛ لأنها قد استباححت البلاد للتغريب والنهب من جهة، كما قامت من جهة أخرى باجتثاث الصحوة الإسلامية التي كان الأزهر يترجمها، فسحقها بجبروت أعمى، ودنست الأزهر الشريف واجتزت رؤوس مشايخه وعلمائه وطلابه في سابقة تعد الأولى من نوعها في تاريخ بلدنا.

وإلى حفنة الخارجين عن أبسط روابط الانتماء والغيرة لدينهم وبلدهم ودماء شهدائه نقدم بعض المقتطفات من مقالين للكاتب الفرنسي فرنسوا شارل-رو François Charles-Roux ، وهو من مؤرخي الحملة وواحد من المدافعين عنها. والمقال الأول بعنوان: «الهدف الاستعماري للحملة الفرنسية على مصر». وقد نشر في مجلة الدراسات النابليونية «المجلد الثاني والعشرين، السنة الثالثة عشرة يناير - يونيو ١٩٢٤؛ والمقال الثاني بعنوان: «السياسة الإسلامية لبونابرت»، وقد نشر في نفس المجلة التاريخية المتخصصة، في السنة الرابعة عشرة، المجلد الرابع والعشرين يناير - يونيو ١٩٢٥ ويقع في ٢٥ صفحة.

ومع مراعاة أن المؤرخ فرنسوا شارل-رو من المدافعين عن نابليون وحملاته الدامية، إلا أن الحقائق التي يوردها دامغة بذاتها، ولعلها تعيد بعض الحياء إلى دماء شرذمة المدافعين عن هذه المجزرة التاريخية..

بعد التقديم لهذه الحملة - التي أحتل طوالها الفرنسيون هذا البلد وحكموه - يبدأ فرنسوا شارل-رو بتناول الإعداد لها في المقال الخاص بالهدف الاستعماري فكتب قائلاً:

وعنوانه الفرعى هو: «إعداد ورحيل لجنة العلوم والفنون - ١٧٩٨» ويقع فى ١٨ صفحة.

« فى الحادى والثانى عشر من فنتوز العام السادس (الأول والثانى من مارس عام ١٧٩٨ )، وعلى مدى جلستين ضريت السرية المطلقة على محاضرها قامت الإدارة التنفيذية للجمهورية الفرنسية باتخاذ قرار بتأجيل مشروع إنزال قواتها على السواحل البريطانية، كما أقرت مبدأ إرسال حملة إلى مصر أسندت قيادتها إلى الجنرال بوناپرت.

« وهذا القرار المفاجىء وغير المتوقع، من جانب الفرنسيين ومن جانب الأعداء على السواء، لم يكن فى الواقع إلا التنفيذ المتأخر لمشروع تم وضعه من فترة بعيدة وتم عرضه عدة مرات سواء أيام الملكية البائدة أم على عهد الحكومة الجمهورية<sup>(١)</sup>. وهذا المشروع الذى كانت أهميته السياسية المباشرة والملحة قد دفعت حكومة الإدارة إلى تبنيه وإنجازه، لم يكن مجرد عملية حربية أو مناورة استراتيجية واسعة المدى: لقد كان عملية سياسية واقتصادية وعسكرية فى آن واحد. بل لقد كان مشروعاً حقيقياً لإنشاء مستعمرة.

« ولقد وصلت هذه الفكرة عن طريق مذكرة تقدم بها تاليران Talleyrand، الذى كان - بما لا يدع مجالاً للشك - على دراية واسعة بالمبادرات الأولى الأساسية المتعلقة بمصر، وملماً بالرغبة البعيدة المدى للاستحواذ على هذا البلد ومشروع غزوه وضمه. وكانت هذه المذكرة المحتوية على المشاريع والخطط والمراسلات التى جمعها تاليران<sup>(٢)</sup>، تعرض فكرة موضوع الحملة الفرنسية على مصر للمسئولين بالإدارة

---

(١) راجع: «جدور الحملة الفرنسية على مصر» بقلم فرنسوا شارل-رو، باريس، بلون ١٩١٠ وكتاب «المجتراتا، قناة السويس ومصر فى القرن الثامن عشر» لنفس المؤلف، باريس، بلون ١٩٢٢.

(٢) خاصة من المذكرة التفصيلية التى رفعها إليه مجالون القنصل العام لفرنسا فى مصر، منذ بضعة أيام.

كمشروع إقامة مستعمرة ذى فائدة مزدوجة لصالح الشعب المستعمر والبلد الذى سيستعمر:

« لقد كانت مصر سابقاً مقاطعة من مقاطعات الجمهورية الرومانية، ويجب أن تصبح مقاطعة للجمهورية الفرنسية. لقد كان غزو الرومان يمثل مرحلة الاضمحلال لهذا البلد الجميل: وسيكون الغزو الفرنسى مرحلة ازدهاره. فلقد قام الرومان بنهب مصر من أيدي ملوك اشتهروا بالفنون والعلوم... والفرنسيون سيستولون عليها من أيدي أبشع طغاة وجدوا على الإطلاق»<sup>(١)</sup>.

وبعد هذه الفقرة التى أوردها فرنسوا شارل-رو من التقرير المرفوع إلى تاليران، يواصل مقاله قائلاً: « كما أنهم سيقومون بإنعاش الزراعة والصناعة والتجارة، وسيعيدون فتح التبادلات مع أوروبا والهند القديمة عن طريق السويس وبذلك سيقومون بعمل ثورة حقيقية فى الحياة الاقتصادية لشعوب الغرب، كما سيزودون فرنسا بتعويض فقدتها المؤكد إن عاجلاً أو آجلاً - للمستعمرات الأمريكية. إن العمل على جعل مصر تابعة لفرنسا وإحياء مشعل الحضارة الذى انطفأ فيها، وإعادة الرخاء بسحق البربرية الطاغية هو تحديداً هدف الحملة على مصر فى الوثيقة التى قامت الإدارة بدراستها واتخاذ القرار بشأنها.

« وفيما بعد، بعد الجلاء عنها، عندما قام أحد الأعضاء المدنيين لبونابرت بكتابة المقدمة التاريخية الرائعة «وصف مصر»<sup>(٢)</sup>. التى تكفى وحدها بتخليد ذكرى الحملة الفرنسية على مصر، كتب فوربيه Fourier قائلاً: إنه قد ساهم فى هذه الحملة من نفس منطلق الأهداف الاستعمارية والإحياء الاقتصادى والعمل الحضارى. وإلى جانب الأهداف السياسية التى أدت إلى اتخاذ قرار قيام هذه الحملة - وهى إصابة

---

(١) راجع نص هذه المذكرة فى «الحملة على مصر» بقلم س. دى لاجونكيير، المجلد الأول، باريس شارل لافوزيل.

(٢) لقد بدأت طباعة «وصف مصر» عام ١٨٠٩ وانتهت عام ١٨٢٥. وتتضمن أول طبعة ٩ أجزاء من القطع الكبير من النصوص و١٤ جزءاً من اللوحات والخرائط والتصميمات والحفر.

انجلترا ومعاقبة بكوات المماليك لتكيدهم على التجار الفرنسيين - يضيف فورييه قائلاً: «مع ضرورة الأخذ في الاعتبار بالمزايا الناجمة عن الاستقرار الدائم». ويوضح فرنسوا شارل - وهذه المزايا قائلاً: «وهذه المزايا كانت فرنسا ستحصل عليها من الزراعات التي كانت تمارس في مصر كالقمح والحبوب والأرز ومختلف الفواكه، ومن تلك المحاصيل الأكثر فائدة - والتي سيؤدى إليها إدخال نظام لاستخدام مياه النيل بشكل أفضل:- قصب السكر والكتان والنيلة وتصدير المنتجات التي تحصل عليها مصر من الخارج كالقهوة والعمور من شبه الجزيرة العربية وبودرة الذهب والعاج ومنتجات أخرى قادمة من أفريقيا، وبضائع من الهند، واستيراد المنتجات التي تنقص مصر والتي تقوم بها الصناعة الفرنسية كالمنسوجات والنبيد والحديد والرصاص والخشب إلخ... إن الاستغلال العقلاني لهذه الموارد المتعددة سيتطلب أعمالاً ستؤدى إلى ازدياد ثروة البلد ومنها أعمال الري بالنسبة للزراعة، وبالنسبة للتجارة، ربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر عن طريق قناة صالحة للملاحة. كما سيتم إقامة أو توسيع علاقات تجارية مع شبه الجزيرة العربية وفارس والهندوستان وأفريقيا. إن قارة أفريقيا ستفتح للاستغلال.. وما أن تزدهر وتتجدد بفضل حكومة عاقلة ومستنيرة فإن مصر سوف تشع على كافة البلدان المحيطة بها».

وبعد أن أوضح المؤرخ الفرنسى الجانب السياسى الاستعمارى للحملة ينتقل إلى « لجنة العلوم والفنون » التى اصطحبها نابليون معه لنهب وسرقة النفائس والآثار لإثراء متاحف فرنسا... «إن عظمة مصر الماضية وازدهار حضارتها القديمة، والقيمة الفنية والأهمية التاريخية لآثارها التى مازالت تشهد على ذلك، كانت موضوعات تشير خيال بوناپرت بشدة إلى جانب كونها موضوعات يألّفها. فلم تكن بعيدة عن الانجذاب الذى يشعر به تجاه وادى النيل. وقد كان يرى فيها وسيلة لازدياد مجد الحملة بإضافة اكتشافات مفيدة للفن والعلم إلى جانب الأهمية السياسية للحملة التى سيطرت على فكرة وحلم بها وناقشها عند لقائه مع تاليران عند قرب إنتهاء الحملة على إيطاليا. فمنذ هذه الحملة على أى حال قد بدأت فكرة استخدام الحرب

فى إثراء التراث الفنى والعلمى لفرنسا وإن كان بصورة متواضعة فى البداية، وذلك عن طريق إنشاء « لجنة العلوم والفنون » التى كان مونج Monge عضواً بها. ولقد كانت مهمة مونج فى إيطاليا هى اختيار القطع الفنية التى ستزين متاحف فرنسا (...).

« وهكذا توصل - عند ميله إلى شن حملة على مصر، وفور أن تقرر ذلك بالفعل - إلى إضفاء الهدف العلمى والفنى عليها، وأن يزود الجيش بلجنة العلوم والفنون حيث كانت كافة التخصصات ممثلة بها ».

ثم يتساءل فرنسوا شارل-رو قائلاً: « ترى ما كانت مهمة هذه اللجنة؟ » ويسارع بالرد فى نفس السطر قائلاً: « أولاً وقبل أى شىء مساعدة الجيش ووضع العلم فى خدمة الحرب والحكومة، والإسهام فى تنظيم وإدارة البلد الذى تم غزوه؛ وإلى جانب ذلك، على حد قول أحد الذين ساهموا فيها<sup>(١)</sup>: « إدخال فنون أوروبا إلى شعب نصف همجى ونصف متحضر، بلا صناعة وبلا تنوير علمى »؛ وأخيراً الكشف لأوروبا عن مصر القديمة، ومصر آنذاك، مصر الفراعنة واليونان والرومان ومصر المماليك ».

وقبل أن يتناول المؤرخ أعضاء « لجنة العلوم والفنون » وكيفية اختيارهم، وخاصة مونج، رئيس هذه اللجنة، نراه يكشف عن جانب آخر لهذه الحملة المشثومة على مصر، ألا وهو جانب التنصير. فحتى قبل أن يصدر القرار الرسمى ببدء الإعداد للحملة، كان نابليون « قد اختار وعين مونج وأرسله إلى الفاتيكان، قبل ذلك بقليل، لياخذ من هناك، من لجنة التنصير، مطابع اللغات اليونانية والعربية والسريانية بكامل هيئتها من معدات وأحرف وعمال، إضافة إلى الخرائط والكتب والوثائق » (...).

« وكان بونابرت يود فعلاً أن تضم اللجنة كافة التخصصات التى يمكنها أن تفيد فى الأعمال العلمية والفنية والأدبية. بل لقد تمادى فى طموحاته بأنه كان يريد

---

(١) چومار: « ملاحظات حول كونيته »، باريس ١٨٤٦.

من هذه اللجنة أن تقدم للجيش وللمستعمرة التي كان يزمع إنشاءها كافة الموارد التي تلتطف وتجميل الحياة. وكم تمنى أن يصطحب الشاعر ديليل Delille، والموسيقى ميهول Méhul، والمغنى لوا Loy. وبدلاً من ديليل المتقدم فى السن، وميهول المحب للبقاء فى المنزل، ولوا الذى خشى أن يصاب بالرشح، فقد اصطحب بونابرت كل من بارسيفال جرانمزيون Parseval-Grandmaison، وريجيل Riguel وفيللوتو Villoteau الذى كان البديل الاحتياطى للوا فى الأوبرا. أما الأكاديمى أرنو Arnaud الذى اضطر إلى التوقف فى مألطة، فقد كان يعوض ما ينقص بارسيفال ليمثل مجال الأدب... .

ويختتم فرنسوا شارل-رو مقاله بذلك القرار الذى ظل «سرى للغاية» لفترة ما والذى كان يعلن ويحدد الهدف والغرض من المهمة المسندة إلى نابليون قائلاً: «إن القائد الأعلى لجيش الشرق كما يوضح القرار فى المادة ٣ سوف يشق قناة السويس ويتخذ الإجراءات الضرورية لتأكيد الملكية التامة للبحر الأحمر وتبعيته للجمهورية الفرنسية»؛ وفى المادة التالية نطالع: «وسوف يقوم بتحسين حال المصريين بكافة الوسائل التى تحت سلطته» وكانت هذه الإشارة الدقيقة فى نقطة واحدة والعامة فيما يتعلق بالباقي، هى تحديد المهمة السياسية والمدنية التى كان على لجنة العلوم والفنون أن تساهم فيها.

ولا داعى لتوضيح معنى «الوسائل» التى كانت تحت سلطة نابليون من سيوف وبنادق ومدافع.. تلك الوسائل التى قام بواسطتها «بتحسين» حال المصريين بحش رؤوسهم واغتصاب نسائهم وأطفالهم وبقربونهم والتنكيل بجثثهم، وحرق قراهم ومحاصيلهم، وسلب ونهب كل ما لديهم.

وأما المقال الثانى والخاص بالسياسة الإسلامية لبونابرت، فنكتفى بنقل أول فقرة والتى يستشهد فيها المؤرخ بنابليون حينما كتب قائلاً: «إن السياسات التى كانت أفضل ما لاحظت من مهارة الشعوب المصرية هى تلك التى اعتبرت أن الدين هو العقبة الأساسية لاستقرار السلطات الفرنسية. فقد كتب فولنيه Volney قائلاً عام ١٧٨٨: لكى تستقر فى مصر لابد لك من شن ثلاثة حروب: الأولى ضد انجلترا،

والثانية ضد الباب العالي والثالثة -وهى أصعبهم جميعاً- ضد المسلمين الذين يكونون غالبية شعب ذلك البلد» .

ومنذ اللحظات الأولى من غزوه لأرض مصر بدأ نابليون بالتحذرة والغدر والتحايل .. وينهى فرنسوا شارل-رو مقاله هذا قائلاً:

« فلم يكن إلا لمثل بوناپرت أن يعطى منذ أول لحظة احتكاكك بين فرنسا وشمال أفريقيا ومع الإسلام، أكمل النماذج لإدارة محلية وسياسية ودينية جديدة تماماً ومدفوعة إجمالاً إلى أقصى حدود تم تحقيقها آنذاك . وعلى أى حال لم يتخطاها أحد . إلا أن الإخضاع والتحالف اللذان كانت تهدف إليهما هذه السياسة المحلية والدينية، كانا هما نفسهما يهدفان إلى إمكانية تحقيق الهدف الاستعماري الذي كان مسنداً إلى الحملة الفرنسية، في الظروف الأمنية المطلوبة وكذلك الاستقرار . غير أن تنفيذ نفس هذا المخطط، الذي ساندته على التوالي حيوية بوناپرت ونشاطه، لم يمكنه أن يؤثر بدوره على استعدادات الأهالي تجاه السيطرة الفرنسية» .

وإذا ما اختصرنا ما تقدم من معطيات بقلم أحد مؤرخي الحملة الفرنسية، واستخلصنا أهم عباراتها لوجدنا أن الحملة الفرنسية على مصر كانت «احتلالاً» و«استعماراً»، وأنها عبارة عن عملية سياسية واقتصادية وعسكرية، بل مشروعاً حقيقياً لإنشاء مستعمرة، وعمل ثورة حقيقية في الحياة الاقتصادية لشعوب الغرب وتعويض فرنسا فقدانها المستعمرات الأمريكية، وأن هدف الحملة هو: العمل على جعل مصر تابعة لفرنسا: وأن فوربييه قد ساهم في ذلك ففي كتاب «وصف مصر» الذي تتغنى به تلك الشردمة وتتخذة ذريعة للاحتفال، كتب قائلاً في مقدمته: إنه ساهم في هذا العمل من نفس منطلق الأهداف الاستعمارية والإحياء الاقتصادي بالاستغلال العقلاني لمواردها. كما يحدد فرنسوا شارل-رو أنه منذ هذه الحملة قد بدأت فكرة استخدام الحرب في إثراء التراث الفني والعلمي لفرنسا عن طريق «لجنة العلوم والفنون» التي كانت مهمتها بالتحديد: مساعدة الجيش ووضع العلم في خدمة الحرب والحكومة، والإسهام في تنظيم وإدارة البلد الذي تم غزوه، إلى جانب إدخال

فنون أوروبا إلى شعب همجى وبلا تنوير - الأمر الذى يعنى بداية فرض عملية التغريب واقتلاع الجذور والتراث . كما يكشف نفس المؤرخ حقيقة تلك المطبعة المزعومة التى تتغنى بها تلك الشردمة وأنه قد أتى بها نابليون من الفاتيكان ومن لجنة التنصير وبكل ما تتطلبه من عتاد ومعدات . ذلك لأن الدين الإسلامى هو العقبة الإسلامية لاستقرار السلطات الفرنسية فى مصر! كما كان من ضمن أهداف هذه الحملة المشثومة شق قناة السويس وتأكيد ملكيتها التامة وتبعيتها للجمهورية الفرنسية . وأنكت ما يختتم به ذلك المؤرخ مقالته هو اعتبار المجازر الهمجية التى قام بها نابليون فى مصر وعكا من أكمل النماذج لتحقيق الهدف الاستعمارى المسند إلى الحملة الفرنسية!!

فهل بعد كل هذه الحقائق الشديدة الوضوح والصراحة يحق لأى مخلوق كان وأيا كانت درجة انتمائه للغرب وتواطؤه معه أن يدافع عن الاحتفال بهذا الاستعمار الوقح المتعدد الأوجه؟! ...

\* \* \*

# الهدف الاستعماري للحملة الفرنسية على مصر إعداد ورحيل لجنة العلوم والفنون (١٧٩٨)

مجلة الدراسات النابليونية

المجلد الثاني والعشرون، السنة الثالثة عشرة

يناير - يونيو ١٩٢٤

إن الحملة التي قادها بونايرت على مصر كانت، بالنسبة لهذا البلد، نقطة انطلاق لعصر جديد، وأساساً لصحوته. ويرجع شرف إطلاق الشرارة الأولى إلى فرنسا. ولقد شهدت السنوات الأربع، التي احتل طوالها الفرنسيون هذا البلد وحكموه، إنجازاً جهوداً في المجال السياسي والإداري والعلمي تستحق كشافتها، ومنهجها ونتائجها أن تحظى بالدراسة بعيداً عن الأحداث العسكرية وأن تسلط عليها الأضواء<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

ولقد بدأ الإعداد فوراً للحملة بقيادة بونايرت بنشاط لا يعرف الكلل، وإن ظل المكان الذي ستنتجه إليه محاطاً بسرية مطلقة، إلا أن هذه الإعدادات كانت تؤكد في نفس الوقت طابعها المركب المتعدد الملامح، فهو طابع مدني وعسكري وعلمي واستعماري في آن واحد.

ولتحقيق البرنامج الاقتصادي الذي ارتجله تاليران في مذكرته، كانت هناك

---

(١) نزع دراسة جزء منها على الأقل في بحث حول «بونايرت وسكان مصر».

حاجة ماسة إلى كفاءات تقنية لم يكن العسكريون بقادرين عليها لانشغالهم  
بمتطلبات الحملة العسكرية وإلى جانب الموضوعات التي أشار إليها وزير العلاقات  
الخارجية في تقرير أضيف إليها هدف أكثر رقياً وغير ذى مطمع.

إن عظمة مصر الماضية وازدهار حضارتها القديمة، والقيمة الفنية والأهمية  
التاريخية لآثارها التي مازالت تشهد على ذلك، كانت موضوعات تثير خيال بونابرت  
بشدة إلى جانب كونها موضوعات يالفها. فلم تكن بعيدة عن الانجذاب الذي يشعر  
به تجاه وادى النيل. وقد كان يرى فيها وسيلة لازدياد مجد الحملة بإضافة اكتشافات  
مفيدة للفن والعلم إلى جانب الأهمية السياسية للحملة التي سيطرت على فكره  
وحلم بها وناقشها عند لقائه مع تاليران عند قرب انتهاء الحملة على إيطاليا. فمنذ  
هذه الحملة على أى حال، بدأت فكرة استخدام الحرب في اثراء التراث الفنى  
والعلمى لفرنسا، وإن كان بصورة متواضعة فى البداية، وذلك عن طريق إنشاء « لجنة  
العلوم والفنون » التي كان مونج عضواً بها. ولقد كانت مهمة مونج فى إيطاليا هى  
اختيار القطع الفنية التي ستزين متاحف فرنسا، وقد سمع آنذاك تلميحا عن نية  
بونابرت لتوجيه أسلحته إلى مصر. وقد تلقى منه مهمة جمع المعلومات عن هذا  
البلد الذي كان ربما قد ساهم فى توجيه أفكار الجنرال إليه. ويمكننا افتراض أن ثقافته  
قد أكدت فكرة بونابرت من أنه توجد على ضفاف النيل كنوز فنية يتعين اكتشافها  
وهناك أعمال كبرى يتعين تنفيذها. وما أن تم توقيع الصلح فى إيطاليا حتى عاد مونج  
إلى باريس هو وبرتييه Berthier وقد أسند إليه بونابرت مهمة توصيل اتفاقية كامبو -  
فورميو إلى الإدارة لاعتمادها. وكان مازال هناك، فى الخامس من ديسمبر عام ١٧٩٧،  
حينما عاد بطل آر كول وريفولى منتصراً إلى منزله بشارع شانترين الذى تغير اسمه  
تكريماً له إلى شارع النصر. وقد كان هو وبسرتوليه Bertholet ولا بلاس Laplace  
ولا جرانج Lagrange من العلماء الذين أحاط بهم الجنرال نفسه ليتحدث فى  
الرياضيات والفيزياء والكيمياء. وبعد ذلك بقليل، تم تعيين بونابرت فى أكاديمية  
العلوم، فى المقعد الذى خلا بنفى كارنو Carnot. وقد اغتبط بهذا التكريم حتى أنه

ذهب لحضور الجلسة مرتدياً بدلة الأكاديمية التي صممها له الفنان دافيد David. وبعد قليل بدأ يوقع قراراته وقد ألحق باسمه لقب عضو المجمع الوطني قبل لقبه العسكرى. وذلك يدل على مدى الأهمية التي كان يضفيها على وجوده برفقة رجال العلم.

وهكذا توصل، عند ميله إلى شن حملة على مصر وفور أن تقرر ذلك بالفعل، إلى إضفاء الهدف العلمى والفنى عليها، وأن يزود الجيش بلجنة العلوم والفنون حيث كانت كافة التخصصات ممثلة بها. ترى ما كانت مهمة هذه اللجنة؟ أولاً وقبل أى شىء مساعدة الجيش ووضع العلم فى خدمة الحرب والحكومة، والإسهام فى تنظيم وإدارة البلد الذى تم غزوه، وإلى جانب ذلك، على حد قول أحد الذين ساهموا فيها<sup>(١)</sup>: «إدخال فنون أوروبا إلى شعب نصف همجى ونصف متحضر، بلا صناعة وبلا تنوير علمى»: «وأخيراً الكشف لأوروبا عن مصر القديمة، ومصر آنذاك، مصر القراعنة واليونان والرومان ومصر المماليك».

\* \* \*

وابتداء من ٢٦ فنتوز العام السادس (١٦ مارس ١٧٩٨) صدر مرسوماً من الإدارة إلى وزير الداخلية «ليضع تحت تصرف الجنرال بونابرت المهندسين والفنانين والمرءوسين الآخرين بوزارته وكذلك المعدات المختلفة» التى قد يطلبها الجنرال لخدمة الحملة المسئول عنها<sup>(٢)</sup>. وبونابرت، الذى صدر من أجله هذا المرسوم، لم يكن قد انتظر إتمام هذا الإجراء ليختار بنفسه ويعين قادة أعضاء مجلس القيادة العلمى، إذ أنه كان قد اختار وعين مونج وأرسله إلى الفاتيكان، قبل ذلك بقليل، ليأخذ من هناك، من لجنة التنصير مطابع اللغات اليونانية والعربية والسريانية بكامل هيئتها من معدات وأحرف وأعمال، إضافة إلى الخرائط والكتب والوثائق المتعلقة بمصر إن وجدت. وفى

(١) جومار: «ملاحظات حول كونتية» باريس، ١٨٤٩.

(٢) يوجد نص هذا المرسوم فى «يوميات وذكريات حول الحملة على مصر» بقلم

أ. فيلييه دى تراج، باريس، دار نشر بلون، ١٨٩٩.

تلك الفترة ذكره صديقه المتسلط برغبته التي كان قد أعرب له عنها فيما مضى . ففي ٢٥ فتوز ( ١٥ مارس ) وقبل أن توقع الإدارة على وثيقة مولد لجنة العلوم والفنون بعدة أيام، كان مونج يكتب من روما إلى بونايرت ليثنيه عن اصطحابه معه إلى مصر :

« إنك تريد بصورة مطلقة، يا عزيزي الجنرال، أن أقوم بالمغامرة في مثل سنى . فإن كنت أكثر شياً لما وجدت عرضاً أفضل من أن أقوم بالخدمة تحت أوامرك وأن أساهم بإمكانياتي المتواضعة في الخير الذي تتطلع إلى عمله لوطننا وللعالم أجمع، إلا أنني مطلوب في باريس لمهمة يمكنني القيام بها ولا يستطيع غيري إنجازها، كما أنني سأترك في باريس سيدة لم تعد شابة وستكون بمفردها ولا يحق لي أن أتعسها والتي لم يعد الأمل، الذي يجعلها تتحمل العديد من الآلام، بذى معنى رجاء تركى مع الباقين أعجب بملكائك وأقدر خدماتك وأنغنى بمجدك»<sup>(١)</sup>.

إلا أن مقاومة بونايرت لم تكن بالأمر الهين، وكان من المحال بالنسبة لمونج، وهو أول من عرف بمشاريعه المتعلقة بمصر، أن يرفض الذهاب معه! وبعد شيء من التردد اضطر مونج إلى أن يعد الجنرال بأنه سيرحل معه - وكان ذلك بعد تهديد بونايرت له بأنه سيعود من إيطاليا لكي يصطحبه<sup>(٢)</sup>!

أما برتوليه، وكان لا ينفصل عن مونج، وهو أيضاً من رواد شارع شانترين، فكان اختيار بونايرت قد وقع عليه منذ البداية إذ أنه تعرف إليه وقدر شأنه عندما كان في إيطاليا وكان قد طلب منه دروساً في الكيمياء، وكان برتوليه قد اشتهر بأعماله القيمة حول الكلور، والنشادر، والصبغات، إضافة إلى كونه عضواً بأكاديمية العلوم وهو في الثالثة والثلاثين وكان مثل صديقه مونج قد وضع علمه في خدمة الدفاع الوطني أيام حرب الثورة . وبينما كان مونج يقوم بإنشاء مسابك المدافع ويكتب بحثاً عن فن تصنيع هذه الآلات كان برتوليه قد بحث واستطاع أن يتوصل إلى أنواع

(١) وارد في لاجونكبير، المرجع السابق الذكر، المجلد الأول، صفحة ٣٢٢ .

(٢) خطاب من بونايرت إلى مونج، ١٣ جرمينال، ٢ إبريل . راجع لاجونكبير المرجع السابق

الذكر، المجلد الأول ص ٣٢٥ .

جديدة من المتفجرات وأشرف على تصنيع البارود، فكانت خدماته وإمكانياته تؤهله ليشارك في الحملة التي يتم الإعداد لها.

أى أن برتوليه ومونج كانا أول نواة للجنة المقبلة. وسرعان ما التف حولهما كوكبة لا مثيل لها من المهندسين المدنيين والمعماريين والميكانيكية والعلماء في مختلف المجالات، والفنانين والأدباء وعمال الطباعة. وبدأت عملية الاختيار فور موافقة الإدارة على مبادرة بونابرت، وتمت تحت إشراف القائد العام سواء بمعرفته شخصياً أو بواسطة أوائل من كان قد اختارهم. فتولى برتوليه مهمة تعيين جزء من العلماء، أما الجنرال كفالرلى دوفالجا Caffarelli-Dufalga وكان تابعاً لجيش العبقري الذى عينه لتولى إدارة اللجنة العلمية الفنية، فقد وقعت عليه مهمة ترشيح وبحث واختيار طلبات الالتحاق<sup>(١)</sup>.

وكان فوربيه من أوائل من وقع عليهم الاختيار، فهو مهندس مساحة ذائع الصيت، وأستاذ في كلية الهندسة. وقد اهتم بتجنيد العديد من زملائه وتلاميذه القدامى وتلاميذه الحاليين ليكون جبهة من المهندسين المدنيين. وسرعان ما انتشر خبر أن الحكومة تبحث عن تقنيين للاشتراك في حملة بعيدة ظل مكانها سراً غامضاً وانتهالت الطلبات تلقائياً، وهكذا تقدم تطوعاً فيليب دى تراچ Villiers du Terrage وصديقه دى بوا إيميه Du Bois Aimé، وكلاهما من كلية الهندسة<sup>(٢)</sup>. كما ساهمت مختلف مؤسسات الدولة من مراكز ومدارس عليا، ووزارات المناجم، والطرق والكبارى، وكونسيرفاتوار الفنون والحرف، والغازات، ومتحف العلوم الطبيعية، والمرصد، ساهمت كلها بما لديها من فنيين. ولعل ترشيح الجيولوجى الشهير دولوميو Dolomieu قد تم بواسطة بونابرت شخصياً إذا أنه كان قد تعب من

---

(١) فيما يتعلق بكل ما يخص تكوين وأعمال لجنة العلوم والفنون راجع الفصول الشديدة الأهمية التي خصصها ك. جورج لجران في بحثه المعنون: «في بلدان نابليون: مصر» طبع في جرونوبل، دار نشر شارل روا ١٩١٣.

(٢) راجع فيليب دى تراچ. المرجع السابق الذكر.

مغامرات حياته، ولم يقبل السفر إلا بعد أن استشف سر الحملة، ووجد لها فرصة طيبة لكي يتحقق بنفسه حول النتائج التي توصل إليها في بحث كان قد نشره عام ١٧٩٣ حول تكوين دلتا النيل<sup>(١)</sup>. أما برتوليه، فكان قد ذهب إلى حديقة النباتات للبحث عن علماء طبيعة فتحدث إلى اثنين من أصغر الأساتذة سنا هما كوفيهيه Cuvier وجوفروا سانت هيلير Geoffroy Saint-Hillaire قائلاً: «تعاليا معنا، مونج وأنا سنكون رفاقكما وبونابرت سيكون قائدنا»<sup>(٢)</sup>. ولم يتمكن كوفيهيه من اللحاق بهم معترداً بينما وافق جوفروا سانت هيلير.

ومنذ السادس من جرمينال (٢٦ مارس)، كان بونابرت يتولى كافة المهام العسكرية والمدنية في آن واحد فطلب من وزير الداخلية أن يعد له عدداً من الأخصائيين، الذين كان يعلم موافقتهم أو يفترضها، وأن يكونوا على أهبة الاستعداد للسفر لانتجاهات عابرة مختلفة، بعضهم إلى مدينة بوردو، والبعض الآخر إلى فلمينج وكانوا كالآتي: المواطنان دانجوس Dangos ولاشابيل Lachapelle فلكيان، كوستاز Costaz، فوريهيه، مونج ومولار Mollare مهندسو مساحة، كونتيه Conte رئيس لواء مراقبي المناطيد، ثوان Thouin، جوفروا سانت هيلير، دليل، علماء طبيعة، دولوميو، عالم مناجم، برتوليه، كيمائي، دوبوى Dupuis، خبير آثار، إسنار Isnard لوبير، جراتيان Gratien لوبير، لانكريه، لوففر مهندسو طرق وكباري، والمستشرق شيزي Chezy والمترجم بانهوزين Panhuzen<sup>(٣)</sup>.

وهذه القائمة المبدئية قد خضعت إلى بعض التعديلات والإضافات من قبل وزير الداخلية بالتنسيق بلا شك مع بونابرت، وفي ١٣ جرمينال (٢ أبريل) قام هذا الوزير، السيد ليتورنير Letourneur، بتقديم أسماء العلماء الذين وقع عليهم الاختيار من

---

(١) راجع «ذكريات دي ديجينيت».

(٢) راجع ايتيين جوفروا سانت هيلير، (خطابات مكتوبة من مصر)، ناشرها م. هامى،

هاشيت باريس ١٩٠١.

(٣) راجع لاجونكبير، المرجع السابق الذكر، المجلد الأول، صفحة ٢٤٥.

بونابرت إلى الإدارة، لكي « يتم تعيينهم في مهمة خاصة » وقائمة بأسماء مهندسي وطلبة الطرق والكبارى « للتوجه إلى فلسطين ». وإلى هذه القائمة الجديدة تمت إضافة أسماء كل من نوية Nouet ، عالم فللك، كلويه Clouet وريشييه Richet ، ميكانيكيين، ميلبير Milbert عالم مناجم، ديكوتيل Descotils ، سامويل برنار Samuel Bernard ، رينيو Renault ، كيمائيين، بودار Bodard ، مهندساً، وفيفر Fever الطالب بالطرق والكبارى. وقد اختفت من القائمة أسماء كل من ليفيفر ودى شيزى<sup>(١)</sup>.

وقبل الرحيل، وقعت عدة تخلفات فى صفوف هذه المجموعات الأولى من التجنيد للجنة<sup>(٢)</sup>. وعلى العكس من ذلك، فقد ازدادت القائمة بعدد ضخم من المرشحين الجدد. فقد اجتذبت الأسماء المسجلة فى البداية العديد غيرها، إذ أن الدعاية التى قاموا بها حددت مصير الكثيرين، إذ أصبح كل مرشح يقوم بمهمة تجنيد الآخرين، وقام القادة باختيار أتباعهم. وهكذا أصبح لواء المهندسين الذى كونه فورييه يضم ٤٥ عضواً سواء كان تلميذاً أم خريجاً أم معلماً أم أستاذاً. أما جوزفوا سانت هيلير فقد شجع سافينيى Savigny، الذى كان عائداً من الصين، ونكتو Nectoux العائد من سان دومنج، ومصور الزهور ردوتيه Redouté ، للانضمام إلى جماعة علماء الطبيعة. وقام المرصد بترشيح الفلكى كينو Quesnot والطالب ميشان Méchain . أما كافة مهندسى المساحة ومهندسى الطرق والكبارى الذين كانوا فى الخدمة العسكرية فى الجيش الفرنسى بإيطاليا فقد تلقوا الأوامر بالتوجه إلى جنوا<sup>(٣)</sup> للإبحار مع فرق الجنرال بارجى ديليه Baraguey-d'Hilliers . وكان على قائمة المجموعة الأولى جاكوتان Jacotin رئيساً للمهندسين. أما المطبعة القومية التى طلب بونابرت من ليتورنير أن يوبخ مديرها المتهم بسوء النية، فقد قام بتزويد المطبعتين بكافة المعدات اللازمة لها، وكانت إحداهما يونانية والثانية عربية. وذلك إضافة إلى

(١) لاجونكيير، المرجع السالف الذكر، المجلد الأول صفحة ٢٤٦.

(٢) لم يسافر كل من كلويه، ريشيه، داتموس، دوک لا شاريل، مولار، إيسنار وثوان.

(٣) لاجونكيير، المرجع السابق الذكر، المجلد الأول صفحة ٣١٠.

مجموعة من العاملين مكونة من مساعد طباع، وثلاثة من المصححين، وثمانية عشر من عمال الطباعة التيبوغرافيين ويقودهم المستشرق مارسيل Marcel، خلفاً للانجليس Langlès الذى رفض السفر. ويقول الأمر الموجه إلى الوزير المختص: إن هذا العتاد وهؤلاء الأشخاص كانوا سيتوجهون إلى الجزر الإيطالية<sup>(١)</sup>. كما تم التوجه إلى مدرسة اللغات الشرقية وفريق المترجمين للحصول على مستشرقين ومتحدثين بالعربية، وكان أحدهم واحداً من أهم المخبرين بوزارة العلاقات الخارجية وهو فنور دى بارادى Venture de Paradis. أما الفنانون من قبيل فيفان دينون Vivant-Denon، الذين لم يكن ولعهم بالفن قد اطفأ لديهم روح المغامرة، فقد طلبوا الالتحاق بالحملة.

وكان بونابرت يود فعلاً أن تضم اللجنة كافة التخصصات التى يمكنها أن تفيد فى الأعمال العلمية والفنية والأدبية. بل لقد تمادى فى طموحاته بأنه كان يريد من هذه اللجنة أن تقدم للجيش وللمستعمرة التى كان يزمع إنشاءها كافة الموارد التى تلتطف وتجميل الحياة. وكم تمنى أن يصطحب الشاعر ديليل، والموسيقى ميهول والمغنى لوا. وبدلاً من دليل المتقدم فى السن، وميهول المحب للبقاء فى المنزل، ولوا الذى خشى أن يصاب بالرشح، فقد اصطحب بونابرت كلاً من باريسيفال جرانميرزون، ريجيل وفيللوتو الذى كان البديل الاحتياطى للوا فى الأوبرا. أما الأكاديمى أرنو الذى اضطر إلى التوقف فى مالطة فقد كان يعرض ما ينقص بارسنال ليمثل مجال الآداب.

وعند اقتراب موعد الرحيل وامتلاء قوائم التجنيد اضطرت الحكومة إلى غلق القوائم، وكانت لجنة العلوم والفنون تضم أكثر من ١٨٧ عضواً من المدنيين والعسكريين<sup>(٢)</sup>. إلا أن عشرين منهم لم يرحلوا، فإذا ما طرحناهم من المجموع لحصلنا

(١) راجع لاجونكيير المرجع السالف الذكر المجلد الأول، صفحة ٢٢٩.

(٢) إن الأرقام التى نوردتها تختلف عن تلك الناجمة عن القائمة المنشورة تبعاً لذكريات دى فيليب دى تيراج المذكور سلفاً. وهذه القائمة تتضمن بالفعل أسماء أعضاء المجمع المصرى الذى هو المؤسسة اللاحقة والتى اجتمع فيها بعض الجنرالات وكبار الموظفين التابعين للجيش. ولقد اعتمدنا فى تقديراتنا على الجدول الذى أعده استيف والوارد فى الهامش التالى.

على رقم ١٦٧، الذى يشير إليه استيف Estève الجنرال الصراف بالجيش، فى بيان حالة أعده فى الطريق من طولون إلى مالطة<sup>(١)</sup>.

أى أن اللجنة فى الوضع الذى عملت به فى مصر تضمنت ١٦٥ عضواً.

وبمجرد تجنيدهم، كان يتم توزيع أعضاء اللجنة إلى مجموعات تتفق وتخصصاتهم ومع الخدمات التى كان الجنرال يتوقعها منهم: علماء فلك، مهندسو مساحة، كيميائيون وفزيائيون، مهندسون - ميكانيكيون، ومعماريون، مهندسو طرق وكبارى، مهندسو جغرافية، مهندسون، علماء حيوان، علماء نبات، علماء مناجم، فنانون وموسيقيون، آدباء، اقتصاديون وأخصائيو آثار، مستشرقون، قائمون على المطبعة، وأخيراً جراحون، أطباء وصيادلة.

ولم يحدث أبداً أن قام جيش لغزو بلد واصطحب معه مثل هذه الانسيكلوبيديا الحية، إن مجمل كوادر اللجنة كان يمثل موجز ما يمكن للحضارة متقدمة أن تنتج من مفيد أو مثير. لقد كانوا يمثلون جنيناً، ليس لمجرد إدارة ما وإنما لمدرسة حقيقية من التقدم المادى والمعنوى، إن الأسماء التى كانت تضمها هذه الكوادر والتى ذكرنا بعضاً منها هى أسماء لأساتذة مشاهير قد تم اقتلاعهم، لمصاحبة بونابرت فى مصر، من كل من أكاديمية العلوم، وأقسام كبرى الكليات المتخصصة، ومن إدارة مؤسسات الدولة. وإلى جانبهم كان هناك العديد من الذين يخطون خطواتهم الأولى فى حياتهم العلمية أو حتى يستعدون لها، وإذا ما تشكك البعض فى أمر اختيارهم، فسرعان ما يقتنع بهذا الاختيار عند ملاحظة أن أكثرهم قد اشتهر وأن معظمهم قد وصل إلى أعلى المناصب. فمن بينهم، كم من مهندسين ارتقوا إلى القمة أو مفتشين عموميين، وأساتذة، وأعضاء مقبولين فى المعهد الفرنسى أو فى أكاديمية العلوم أو أكاديمية

---

(١) فيما يلى بيان الحال هذا وقد نشره لاجونكبير فى المرجع السالف الذكر المجلد الأول صفحة ٥١٠: «علماء وفنانون إلخ ١٦٧، ٢١ رياضيات، ٣ فلك، ١٥ علماء طبيعة ومهندسو الفعام، ١٧ مهندساً مدنياً، ١٥ جغرافياً، ٤ مهندسين مدنيين، و٣ طلاب مهندسين بناء، ٨ رسامين، ١ نحات، ١٠ فنانيين ميكانيكيين، ٣ بارود وملح بارود، ١٠ آداب وسكرتارية، ١٥ قنصلاً ومترجماً فورياً، ٩ مفتشى صحة، ٩ محجر صحى، ٢٢ طباعاً، فنانيين موسيقيين».

الأداب بل والأكاديمية الفرنسية! وقد كتب بونابرت<sup>(١)</sup> إلى مونج قائلاً: « سنصطحب معنا ثلث المعهد العلمي. وإذا ما اقتصرنا على الحاضر فإن العبارة مبالغ فيها بعض الشيء، لكن إذا ما نظرنا إلى المستقبل فكان يحق لبونابرت أن يقول أنه كان سيرحل مصطحباً معه ثلث المعهد في نيته الأولى.

وفي هذه المرحلة كان هؤلاء العلماء في أغليبيتهم من الشباب. وبرحيلهم تحت قيادة جنرال في التاسعة والعشرين من عمره، فقد كان كثير منهم أصغر منه سناً. فيليب دى تيراج ودوشانوا كانا في السابعة والعشرين، دى بوا إيميه في التاسعة عشرة، جومار في الحادية والعشرين جوللوا ولانكريه في الثانية والعشرين، مالوس وريبو في الثالثة والعشرين، ديكوتيل في الخامسة والعشرين، سانت جنى في السادسة والعشرين. أما أكبرهم سناً، نويه، فكان الوحيد الذى يقترب من الستينيات، بينما برتوليه ومونج كانا على التوالي في الخمسين والثانية والخمسين. وكانوا جميعاً سواء شباناً أو مستين يجمعهم نفس الإخلاص للوطن والعلم، وما يجب علينا أن نشير إليه بعد ألقابهم هو روحهم المعنوية. فعلى الرغم من أن معظمهم كان يجهل أين يصطحبونه، إلا أنهم جميعاً كانوا يرحلون في غاية الحماس والاطمئنان. وقد كتب دوبوا إيميه فيما بعد قائلاً: « كنا نجهل أين كان بونابرت سيقود خطانا. لكن لم يكن يعيننا. إذ أن هذا المحارب المجيد كان يوحى بحماس نبيل وبثقة عمياء. إن مونج وبرتوليه وكافارللى ودولوميو كانوا يرافقونه ويقبلون أن نشترك معهم في أعمالهم. فهل كان بوسعنا أن نتردد لحظة<sup>(٢)</sup> وعلى الرغم من انعزاله فى إيطاليا، والأدهى من ذلك أن زوجته كانت شديدة التائب له وتتهمه بالجنون، فإن مونج كان قد انتهى به الأمر هو أيضاً بالخضوع لفخر المساهمة فى عملية راح يصف هدفها بهذه الروعة إلى بونابرت<sup>(٣)</sup>:

---

(١) فى ١٦ جرمينال، ٥ أبريل. وارد فى لاجونكبير المرجع السابق الذكر المجلد الأول صفحة ٣٣٠.

(٢) أورده جورج لجران فى المرجع السالف الذكر صفحة ٨١.

(٣) من بلدة تشيفيتا فيكيا، فى ٦ بريرال العام السادس، ٢٥ مايو ١٧٩٨. أورده لاجونكبير فى المجلد الأول صفحة ٥٠٣.

«هأنذا قد تحولت إلى مغامر. إنها لمعجزة جديدة لبطلنا الأسطوري الجديد، جازون Jason، الذى لن يخوض البحار من أجل الحصول على جزة لن تضيف مادتها الكثير إلى الثمن، لكنه ذاهب لينقل مشعل العقل فى بلد قد انطفأ نوره من زمان ولم يعد يشع، وليمد وليوسع مجال الفلسفة وأن ينقل المجد الوطنى إلى بعيد».

وبينما ظل موج فى روما، التى لم يغادرها إلا ليبحر إلى تشيفيتا فيكيا مع جزء من فرق الحملة، فقد كان يجاهد قدر طاعته لإرضاء الطلبات المتكررة لبونابرت فى العتاد والعاملين بالطباعة، والكتب والخرائط والمترجمين الفوريين. ومنذ ٢٥ فانتوز (١٥ مارس)<sup>(١)</sup> أعلن أنه سيحصل على ثلاث مطابع من لجنة التنصير بكافة المعدات والمواد اللازمة لتشغيلها، وقد أضاف إليها الأحرف اللاتينية والعربية والسريانية. كان يزعم الحصول على عدد من الطباعين المساعدين لكنه لم يجد القدر الذى كان يتمناه بونابرت. كما كان يبحث عن المترجمين الفوريين. إلا أنه لم يستطع الحصول على أية خرائط أو أية معلومات من أى نوع كان. فقد جاهد عبثاً ليجد بعضاً منها فى مكتبة التنصير أو مبنى نقش المعادن. ففى إحداهما لم يجد سوى بعض الكتب القديمة التى لا تتفق والوضع الراهن للأمور، وفى الأخرى لم يجد سوى أطلس بسيط حيث كانت خريطة أفريقيا ناقصة ويجب استكمالها<sup>(٢)</sup> لذلك اقترح موج عدم الاعتماد إلا على وثائق باريس فيما يتعلق بالكتب والوثائق، وأن يأخذوا من هناك عدة نسخ من كل الكتب التى كان هو وبونابرت يمتلكانها فى باسريانو وكانت القائمة لدى مساعد الجبهة سولكوفسكى Sulkowski. أما فيما يتعلق بالمترجمين الفوريين فلم يتمكن من تجنيد العديد منهم ولا حتى من المشاهير فقليل منهم كان يجيد القراءة والكتابة. وقد اقترحوا عليه أحد الرهبان الشديد الثقافة لكنه لم يتمكن من الاتصال به حتى ذلك الوقت، إذ كتب قائلاً: «إننى مضطر إلى مراقبته ومحاصرته فى كل مكان وأرجو أن أوفق». وأخيراً فى ١٥ جرمينال (٤ أبريل)<sup>(٣)</sup> كانت المطبعة مغلقة بكاملها وأربعة

(١) راجع لاجونكبير المرجع السابق الذكر المجلد الأول صفحة ٣٢٢.

(٢) راجع لاجونكبير المرجع السابق الذكر المجلد الأول صفحة ٣٢٤.

(٣) راجع لاجونكبير المرجع السابق الذكر المجلد الأول صفحة ٣٣٠.

مترجمين فوريين مستعدين للسفر. وفي الثامن والعشرين من الشهر (الموافق ١٧ أبريل) كان مفوضو الإدارة وكل من موج، وفيبو، ودانو، وفلوران يحصلون على قرار ينص على تكوين وأجور أعضاء المطبعة الشرقية التي كانت تضم مترجماً فورياً، ومساعدين للطباعة، وثلاثة محررين وثلاثة طباعين. وكان المترجم الفوري هو دياربكير أحد الطباعين المساعدين من دمشق<sup>(١)</sup>.

واضطر بونابرت أن يعرض بوسائله الخاصة نقص الكتب والخرائط الذي لاحظته موج في الفاتيكان. وقام شخصياً بتكليف سكرتيره الخاص بورين Bourienne ليكون له مكتبة معسكر صغيرة من القطع المتوسط وقد كتب له القائمة، وكانت تتضمن ستين كتاباً. ولعل هذه القائمة كانت النواة لمكتبة أضخم من ذلك بكثير والتي تلقى الجنرال كافارللي أمر تكوينها. واستعان كافارللي في هذه المهمة بالاقتصادي جان باتست سيه Jean-Baptiste Say الذي أرشده في الاختيار وعاونه على شراء الكتب وكان عددها حوالي خمسمائة وخمسين كتاباً. وكانت الانسيكلوبديا ومجموعة أبحاث أكاديمية العلوم، وأعمال فولتير، ودراسات فنية وتاريخ عسكرية، وكتب تاريخ وجغرافيا، وكتب رحالة، خاصة أعمال سافاري وفولنيه، وأهم الأعمال الأدبية، والعديد من الكتب التقنية في الطب والجراحة والهندسة والتخطيط المدني، بمثابة العتاد الثقافي للحملة. وهنا لا بد من إضافة مجموعة مكونة من سبع نسخ من الخرائط للجغرافي دانفيل، ولم تكن متعلقة بمصر وحدها وإنما خاصة بالمناطق التي كان يمكن أن تمتد إليها الأعمال الحربية للجيش: أوروبا الوسطى، شطآن اليونان وجزرها، آسيا، فلسطين، الهند، الخليج العربي، فينقيا، بحر قزوين وأفريقيا. وقد تم تخصيص مبلغ ٢٥٣٢٩ جنيتها لتكوين هذه المكتبة.

ولم تكن هذه إلا جزءاً من المهمة الملقاة على عاتق الجنرال كافارللي. وفي أحد خطابات بونابرت اقترح عليه موج شراء مقياسين أو ثلاثة وأن يستعين بيروني Prony

---

(١) راجع لاجونكبير المرجع السابق المجلد الأول الصفحة ٤٤٠.

من أجل ذلك<sup>(١)</sup>. وهذه النصيحة كان القائد العام قد تنبه لها وقام بتنفيذها قبل أن يصله هذا الخطاب، إذ كان قد أوصى كافارللي<sup>(٢)</sup> بشراء كافة المعدات التي قد تحتاج إليها اللجنة وهو يقوم بشراء الكتب، ومنها معدات الفلك، والفيزياء والكيمياء، والمسح الأرضي، ومعدات ومواد لمحطة المناطيد، وعلم الأحياء، والجراحة، والصيدلة، والطباعة والعديد من الآلات والمعدات المختلفة. وقد ارتفعت قيمة مشتريات كافارللي بما فيها المكتبة ومصاريف النقل والتغليف وأتعاب الموظفين إلى مبلغ ٢١٥٥٠٩ جنيهاً. وقد زود كل فريق من اللجنة بطاقم كامل من المعدات والأدوات: ساعة ونظارة فلكية للفلكيين، بوصلة، مقاييس الانحراف، مقاييس استواء للمساحين، آلات غاز، كهرباء، بارومترات، ترمومترات ومقاييس رطوبة للفيزيائيين إلخ إلخ... كما حصل الجراحون على كل ما يلزمهم لعمليات البتر وعمليات ثقب العظام، والقرنية، والقطع والحز إلخ... كما تم فك وتغليف مرصد ومعمل فيزياء، ومعمل كيمياء، ومعدات مساحة ومكتب للعلوم الطبيعية، ومنشأة مناطيد، وصيدلية، ومستشفى، ومطبعة، وذلك لئتم شحنها مع الجيش<sup>(٣)</sup>.

وفي أواخر جرمينال (منتصف أبريل) كان قد تم تكوين اللجنة على الورق وتم تزويدها بترسانتها العلمية، فأعطى بونابرت أمر التجمع. وكان كل العلماء والفنانين والعمال والضباط ومعظمهم من باريس وبعضهم من الأقاليم، على أهبة الاستعداد للرحيل إلى فلسينج أو بوردو إلا أن كافارللي قد أعطاهم أمر التجمع في ليون حيث وصلوا إليها في ٤ فلوربال (٢٣ أبريل). وأعلن لهم في أمر الرحيل أن هدف السفر متجهاً إلى روما. وكان على برتبيه رئيس الأركان أن يزودهم بالجوازات بينما سبقهم كافارللي إلى مدينة ليون. وكان على أحد الضباط المهندسين أن يستأجر عربة جياد

---

(١) ٢٧ مارس. راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الأول صفحة ٣٢٧.

(٢) منذ الثاني من جرمينال (٢٢ مارس) اهتم بونابرت بمعرفة إذا ما كانت النقود اللازمة قد وضعت تحت تصرف كافارللي. راجع لاجونكيير المجلد الأول صفحة ٢٤٣.

(٣) راجع فيما يتعلق بمشتريات المكتبة والمعدات الخاصة بلجنة العلوم والفنون، المرجع الوارد ذكره في لاجونكيير، المجلد الأول، ملحق ٣ صفحة ٦٦٣.

للمسافرين أو قارب لنقلهم إلى المدينة آفينيون. وقد وصلوا مساء ٨ فلوريال إلى طولون حيث كان كافارللي قد أعد لهم أماكن البيت.

ولقد تمت الرحلة وفقاً لهذا البرنامج الذي كان بونابرت قد أعدّه. فبدأت الرحلة على طرق فرنسا وعلى مياه نهر الرون، في عربات متواضعة وعلى قوارب تجرها الجياد. إن ملحمة هذا الجيش الكبير العلمى قد بدأت وكانها رحلة للاستمتاع. وسعد الشباب بضحكاتهم وحيويتهم وبفرحة الحياة وعدم الاهتمام بالغد. وكان الخريجون الجدد يهللون باكتشافاتهم وهم يكتشفون فرنسا، فقد كانوا يسخرون وهم جادون، وتلهيهم مناظر الطريق والشوارع وهيئاتها، أو عادات وتخلف الأقاليم، وكانوا يهتمون بالآثار الرومانية وجمال الطبيعة، بل وكان بعضهم مثل جوفروا سانت هيلير يعجب بالمدارس والمجموعات والصناعات. وكانت الوجبات غير المتوقعة والمرتبلة ووسيلة البيات كافية بالكاد لتضفى على هذه الرحلة روح الفريق الذى هو سحر السياحة.

ولم يكن هدف الحملة ليفزع أحداً، فبينما مازال الشك يحوم حول غايتها لم يكن أى شخص يهتم بذلك إذ اطمئنوا للهدوء الواضح على قادة اللجنة وتماسكهم. وعند وصولهم إلى طولون علم جرفوا سنت هيلير من كليبر أنهم « ذاهبون إلى الهند » ولا يبدو أن هذا الاحتمال أو فكرة « الرمال الحارقة فى مصر » قد أثارت قلقه<sup>(١)</sup>.

وكتب بونابرت إلى مونغ فى ٢١ فلوريال (١٠ مايو)<sup>(٢)</sup> قائلاً: « لقد وصلنا جميعاً هنا<sup>(٣)</sup> ومخيم علمائنا فى حالة معنوية عالية ». وسرعان ما بدأ الإبحار. وتم تقسيم أعضاء اللجنة على مختلف بواخر الأسطول، وكان أكثرهم مكانة من قبيل برتوليه وأرنو، على متن البارجة الرئيسية « أوريان » بينما تم توزيع الآخرين على بوارج أكثر تواضعاً<sup>(٤)</sup>. وعندئذ بدأ الاحتكاك بين المدنيين، الذين كانوا حتى تلك اللحظة

(١) راجع الخطابات المكتوبة من مصر إلى كوفييه، ٢٤ فلوريال، ١٣ مايو.

(٢) راجع لاجونكبير المرجع السابق المجلد الأول.

(٣) فى طولون.

(٤) جوفروا سانت هيلير على متن « الألسست » وفيليبه دى تراج على متن « فرانكلين »

وسافيني ورافنو دليل على متن « دبوا » إلخ.

يكونون جماعة متجانسة بينهم، وبين العسكريين الذين كان عليهم أن يتعايشوا معهم. وكان الاحتكاك فظاً قد عانى المدنيون كثيراً. وقام كافارللي، بناء على أوامر بونابرت، بتقسيم أعضاء اللجنة وفقاً لمكانتهم في فرنسا، إلى خمس طبقات<sup>(١)</sup>، تحصل كل منها على معاملة مختلفة واندماجاً محدداً وفقاً لتدرج الرتب العسكرية، فالذين أدرجت أسماؤهم في الدرجة الأولى تساوا بدرجة الضباط العليا وهكذا. وقد حاول القائد الأعلى بهذا التصرف أن يحد من أي تفرقة بين المدنيين والعسكريين فيما يتعلق بترتيبات الإقامة على الباخرة. ولقد تصرف بدون عجرفة ضباطه وبدون تحيزاتهم وارتياحهم من أولئك الدخلاء ذوي السترات المدنية والبرانيط العالية، أي اختصاراً ضد كل أولئك «المدنيين» وباستثناءات قليلة، فقد أسىء استقبال العلماء على السفن، فواحد من أشهرهم اضطر للتشاجر طويلاً ليحصل على كيبنة وعلى مرقد. وعادة كان ينظر إليهم بعين ضارية من قبل ضباط الجيش، بل حتى من قبل بعض كبار الجنرالات في المحيط المباشر لبونابرت، إذ كانوا لا يتحرجون ألبتة من التعبير عن عدائهم. وقد امتد هذا الوضع طوال مدة الإبحار. كما أن قائد اللجنة نفسه، كافارللي - دوفالجا، لم يتورع عن الإعراب عن تفضيله للمهندسين العسكريين على المهندسين المدنيين. فالاهتمام والرعاية التي كان يغدقها بونابرت على العلماء الذين معه على متن «الأوريان» قد زادت من غيرة واحتقار غالبية رجال السيف للمطخى الورق. فلقد كان جونو يتشاءب في الجلسات التي كان يجمع فيها القائد الأعلى كل من برتوليه، فنتور، آرنو، ديجينيت، لارى، ويقول «لان» قد تم قبوله في اللجنة من أجل اسمه<sup>(٢)</sup>. وكان «لان» يعتقد أنه في مأمن من هذه الإهانة، وكم ندم على أنه لم يتمكن من إلقاء آرنو في البحر بواسطة خمسين جندياً وبالطبع لم يسقط كل الضباط إلى هذا المستوى وأكثر من واحد قد تمسك بالإفصاح عن تقديره لجيرانه المدنيين، من قبيل الجنرال رينيه الذي أحاط جوفروا سانت هيلير بكل العناية واستطاع

(١) راجع خطابات جوفروا سانت هيلير.

(٢) نطق هذا الاسم يطابق صوتاً اسم «الحمار» بالفرنسية (الترجمة).

أن يجعل مرؤسيه يتبنون نفس الترحيب بالعالم الشاب . إلا أنه إجمالاً يمكن القول بأن اللقاء الأول بين العناصر المدنية والعناصر العسكرية كان خالياً من أى ترحاب . ولم يتخل العسكريون عن عدائهم إلا فيما بعد بكثير .

لنترك الآن العلماء والجنود يبحرون إلى مالطة، ثم إلى الإسكندرية، ولنتوقف لحظة أمام الاستعدادات العلمية التى أشرنا إليها . إنها لا شك قليلة نسبياً إذا ما قارناها بالاستعدادات العسكرية الضخمة التى تمت فى نفس الوقت على التوالى، إلا أنها مع ذلك تمثل جهداً ضخماً وأدت إلى نتيجة فريدة فى التاريخ فى تكوين جهاز عسكرى بصورة لم تتح لمثله أبداً . وإذا ما كان يقال حقاً إن الوظيفة تخلق العضو، فإنه يمكننا قياس أهمية المهمة التى من أجلها تم خلق هذا الجهاز .

وبينما كانت الحملة فى حيز التنظيم، وبعد أكثر من شهر من بداية الاعدادات العلمية والعسكرية، قررت الإدارة أن تعلن فى قرار<sup>(١)</sup>، ظل سرىاً لفترة، الهدف والغرض من المهمة المسندة إلى بونابرت .

إن القائد الأعلى لجيش الشرق، كما يوضح القرار فى المادة ٣ : « سوف يشق قناة السويس ويتخذ الإجراءات الضرورية لتأكيد الملكية التامة للبحر الأحمر وتبعيته للجمهورية الفرنسية »، « وفى المادة التالية نطالع : « وسوف يقوم بتحسين حال المصريين بكافة الوسائل التى تحت سلطته » . وكانت هذه الإشارة الدقيقة فى نقطة واحدة، والعامرة فيما يتعلق بالباقي، هى تحديد المهمة السياسية والمدنية التى كان على لجنة العلوم والفنون أن تساهم فيها .

فرنسوا شارل-رو

\* \* \*

---

( ١ ) القرار الصادر فى ٢٣ جرمينال العام السادس، ١٢ أبريل ١٧٩٨ . وارد فى لاجونكيير المرجع السابق المجلد الأول .

# السياسة الإسلامية لبونابرت

مجلة الدراسات النابليونية

السنة الرابعة عشرة - المجلد الرابع والعشرون

يناير - يونيو ١٩٢٥

إن الشعور الديني والإهتمام الروحي لكل محركات نفسية المواطنين، والمبالغ فيها إلى درجة التعصب والمدان لإجراءات تافهة شكلاً، كان هو الشيء الوحيد الذي يمكنه خلق أصعب المشاكل بالنسبة للغازى.

وقد كتب بونابرت قائلاً<sup>(١)</sup>: «إن السياسات التي كانت أفضل ما لاحظت من مهارة الشعوب المصرية هي تلك التي اعتبرت أن الدين هو العقبة الأساسية لاستقرار السلطات الفرنسية، فقد كتب فولنيه قائلاً عام ١٧٨٨، لكي تستقر في مصر لا بد لك من شن ثلاثة حروب: الأولى ضد إنجلترا، والثانية ضد الباب العالي، والثالثة - وهي أصعبهم جميعاً - ضد المسلمين الذين يكونون غالبية شعب ذلك البلد».

وبونابرت، الذي لم تكن أولى هذه الحروب لصالحه، والذي يستشف التهديد الثاني تحت صمت تركيا وإن كان يأمل تفادى الحرب الثانية، كان بونابرت أكثر قلقاً لإثارة الثالثة. فمحاولة تكذيب نبؤة فولنيه والاستحواذ على كافة الأسباب التي يمكنها أن تبعد عنه سكان مصر، كانت - في نهاية المطاف - هدف سياسته المحلية. إلا أن التأثير بصفة خاصة في أحد هذه الأسباب، وهو أكثرها أهمية، يمثل موضوع جزء من هذه السياسة المحلية التي لا بد أن نفردها مكاناً على حدة هي: سياسته الدينية.

(١) راجع برتران «حملات مصر وسوريا» المجلد الأول، صفحة ٢١١.

فلم يسبق لأى مستعمر أوروبى أن واجه الإسلام باستعدادات أكثر تسامحاً بل وأكثر تعاطفاً<sup>(١)</sup>. فلم تكن هناك أية خلفية للتبشير بالمسيحية، ولم تكن هناك أية أفكار مسبقة دينية تؤثر على فكر بونابرت بصورة مضرّة بالمسلمين. وبصفتهم كفاراً أو غير مؤمنين<sup>(٢)</sup>، فلم يعانون من جانبه أى عداة أو احتقار. فقد كان وقتها مليئاً بالأفكار التى روجتها الثورة، مستقلاً عن الكنيسة الكاثوليكية، ومعادياً للتطرف البابوى حتى يحتاط ضد أتباع الإسلام لمجرد أنهم أغراب عن الإيمان المسيحى. إلا أنه كان أيضاً شديد الروحانية، ويؤمن بالإله على طريقة عصره بل متدين على طريقة كل العصور لكى يحتاط ضدّهم لمجرد أنهم مؤمنون مقتنعون ينتمون ويمارسون ديانة لها عقائدها وعبادتها. إن إيمانهم العميق، وورعهم، والعقيدة الأساسية لدينهم - وهى التوحيد بالله - لم تكن أبداً لتجرح أفكاره الفلسفية، فهو يحترم إيمانهم، ومفهومه للإله أقرب ما يكون للعقيدة التوحيدية للإسلام منها لعقيدة التثليث لمختلف الديانات المسيحية. إن محمداً يشير إعجابه<sup>(٣)</sup> كمؤسس دينى، وقائد للشعوب، ومشرع. إن التاريخ ومذهب النبى كانا قد أثارا اهتمامه منذ زمن بعيد، وقبل حتى أن يعرف أن قدره سيقوده إلى مصر بدأ يدرس تاريخ العرب<sup>(٤)</sup>. كما قرأ القرآن وكان يحتفظ بنسخة منه فى مكتبته أيام الحملة إلى جانب العديد من الكتب الدينية<sup>(٥)</sup>. فالإسلام يستحوذ على خياله من قبل أيام الحملة على مصر، وقد ازداد كثافة أثناءها وامتد بعدها. وأثناء اعتقاله، كم عاد بذاكرته إلى العالم الإسلامى، وفى تلك الأحاديث

(١) «بونابرت والإسلام» بقلم س. شرفيل. باريس، بدون، ١٩١٤.

(٢) هكذا وصفهم للمسلمين فى كتاباتهم!!! (الترجمة).

(٣) «محمد كان رجلاً عظيماً». برتران، (حملات مصر وسوريا) المجلد الأول صفحة

٢٠٨.

(٤) يوجد بين مخطوطاته وهو شاب ملخص لتاريخ العرب للأب مارينى وهذا المخطوط تم طبعه مع غيره ومن بينها ملاحظات عن تاريخ مصر القديمة بقلم فريدريك ماسون تحت عنوان «نابليون المجهول».

(٥) العهد القديم والعهد الحديث، والفيدا، والأساطير.

التي كان يملئها في سانت هيلين، توجد بضعة صفحات وهي أكثر الصفحات الموضوعية وأكثرها تعاطفاً بين كل ما كتب عن الإسلام في إحدى لغات الغرب .

واقناع المسلمين في مصر بحسن نواياه، الودية الحقيقية والتي يشعر بها فعلاً، والإعراب لهم عنها وإثباتها لهم هي في نهاية المطاف بمثابة كل السياسة الدينية لبونابرت . فلم يقم أى مستعمر أوروبى بالكشف عن نوايا أكثر إخلاصاً وإعلانها بصورة قاطعة، أو قدم أدلة متعددة وواضحة أكثر من ذلك .

ومنذ وصول بونابرت إلى مصر بدأت التصريحات والأدلة، الكلمات والأفعال . ففي أول بيان له للمصريين، دافع بحماس عن أنه لم يأت لهدم دين المسلمين، وأعلن عن احترامه لله، ونبيه والقرآن، كما أعلن ضمناً عن انضمامه للإسلام زاعماً بأنه يُعتبر هو وجنوده كمسلمين حقيقيين، وأشار أيضاً في هذا البيان إلى إلغائه منظمة مالطة الدينية، وإلى عداوات الجمهورية ضد الكرسي الرسولى، وإلى التحالف القديم بين فرنسا والباب العالى العثماني . ومثلما أوضحت بنفسه للإدارة<sup>(١)</sup> فقد كان منزله بالإسكندرية باستمرار مليئاً بالأئمة والقضاة والزعماء والمفتين أو زعماء الدين وقد تعهد أمامهم كتابة بأن يفرض احترام الدين والعبادة، وقد نفذ كلمته إذ أنه فرض على جنوده هذا الاحترام . ووفقاً لأقواله شخصياً فقد استمرت الصلاة في كل مكان كالمعتاد . عند دخوله القاهرة، جدد نفس التعهدات وأعرب عن نفس الإعجاب « بدين النبي وأنه يحب هذا الدين » .

وكل هذه الاحتياطات لم تغيّر من الريبة والعداء اللذين كانا يعكسهما الفرنسيون - بحكم أنهم كفرة - على أغلبية المسلمين في مصر . لكنها بلا شك قد ساهمت في تهدئة ما وقع في الإسكندرية ورشيد والقاهرة . لكن في المناطق الأخرى من بقية القطر فإن المواطنين لم يصدقوا الكلمات التي وصلتهم عبر البيانات، ودون حتى انتظار رؤية الفرنسيين في العمل، تعصبوا في ألا يروا فيهم سوى أعداء للإسلام . « إن

(١) خطاب ١٨ مسيدور ٦ يوليو . مراسلات نابليون رقم ٢٧٦٥ .

الفرنسيين ليسوا سوى مقبولين على مضد من أتباع الإسلام، الذين أذهلتهم سرعة الأحداث، فانحنوا أمام القوة، لكنهم ينعون سوء الحظ الذى نصر الكفرة الذين دنس وجودهم المياه المقدسة، ويعنون من الخزى الواقع على أول مفتاح للكعبة الشريفة<sup>(١)</sup>. وهو سبب أساسى لثورات الأقاليم، فهذا النوع من النفور الدينى يدعم حتى فى الأماكن الخاضعة للنظام والأمن تهديداً دائماً من القلاقل. إن العداء بل الخيانة فى حق الكفرة، الذين هم الفرنسيون، يعد بمشابة فخر أو مجد حتى فى أعين الذين يدفعهم الحرص على الطاعة: فعندما اقتيد السيد محمد كريم، زعيم الإسكندرية الذى خان كليبر، من أبى قير إلى القاهرة تراحم سكان رشيد - حيث تفاخر منو Menou بأنه أقر وفرض سلطته بصورة قاطعة - من كل مكان لتحية السجين<sup>(٢)</sup> وقد دعى الأئمة إلى حرب قلما نجا منها غزاة أوروبيون فى بلد الإسلامى، فقد كانت حرب الجهاد كامنة فى مصر. وكتب بونايرت فيما بعد: «إن نبوة فولنيه على وشك التحقيق» إذ كان الموقف يبدو فى نظره أشبه ما يكون بمعضلة: «فإما الإبحار عودة، وإما المصالحة مع الأفكار الدينية، ونبتعد عن لعنات النبى، وألا نترك أنفسنا نوضع فى صفوف أعداء الإسلام»<sup>(٣)</sup>. أى أن التجربة أثبتت أنه لكى يوضع المرء فى مصاف أصدقاء الإسلام، لا يكفى أن تقف فيها بنفسك. فمهما كانت إثباتات الصداقة مخلصنة من قبل كافر فإنها ستظل دائماً موضع شك. فلم تكن هناك فرصة للجماهير إلا أن تستمع إلى بيانات الزعماء الدينيين المسلمين، ويسمحون لهم ويأمرونهم بالطاعة إلى الفرنسيين «فكان لابد من إقناع المفتين والعلماء والزعماء والأئمة وكسب جانبهم ليقوموا بتفسير القرآن لصالح الجيش».

ويوجد فى القاهرة مسجد يجمع فى طابعه بين المدفن المبجل بصفة خاصة

---

(١) برتران: «حملة مصر وسوريا» المجلد الأول صفحة ٢١١. يطلق المسلمون على مصر «أول مفتاح للكعبة الشريفة» وذلك بسبب اقترابها من المدن المقدسة مكة والمدينة.  
(٢) راجع لاجونكبير المرجع السالف الذكر المجلد الثانى صفحة ٤٥٢.  
(٣) برتران: (حملات مصر وسوريا) المجلد الأول صفحة ٢١٢.

وجامعة إسلامية مشهورة في كل العالم الإسلامي: إنه المسجد الأزهر. فتحت أروقته وفي فناءه المضيء وبهوه ذى الأعمدة المصطفة التي تدفق عليها فيما مضى، أيام الخلفاء، أكثر من ١٢٠٠٠ طالب قادمين لا من مصر وحدها ولكن من جميع أنحاء العالم الإسلامي: أتراك من أوروبا وآسيا، مغاربة من طرابلس وتونس والجزائر والمغرب، ومن فارس، فُرس سكان سمرقند وبخارة، هندوس حبشيون، سودانيون إلخ... وفي الفترة التي سبقت الحملة الفرنسية انخفض عدد الطلبة إلى حوالي ١٢٠٠، والتعليم الذي كان يتضمن أصول الفقه والشرع والطب والرياضيات والتاريخ، قد انحصر - بخلاف القرآن - إلى مبادئ المعارف وإلى اللغة العربية. ومع ذلك، وإن كان قد انحدر عن روعته السابقة، فما زال الأزهر يعد أحد أنشط مراكز تعليم القرآن، وأحد المقار التي يشع منها الإيمان الإسلامي على العالم، وهو مازال يأوى في حلقاته مسلمين من أجناس وأصول شديدة التنوع<sup>(١)</sup>. والأساتذة الذين يعلمون هذا الشباب المتنوع - المجتمع بحكم الصلة الدينية وحدها - عادة ما يشتهرون بالورع وبنقاء عقيدتهم ويتمتعون بسلطة معنوية معينة. ومشايخ «سوربون الأزهر» على حد قول بونايرت، يمكنهم أكثر من مشايخ أى مسجد آخر معارضة أو مساندة سياسته حسب الحالة.

ولقد لجأ إليهم بونايرت ليحصل على «فتوى» تفسير قرآني، نوع التولية التي كان يتمناها لتدعيم سلطاته «إن الحصول على بيان لصالح الفرنسيين من هؤلاء الأعيان الدينيين كان بمثابة نصر معنوي يكمل نصر الأهرامات<sup>(٢)</sup>. هكذا كانوا يظنون من حوله، وهكذا كان يعتقد هو شخصياً. وقد راق له أن يحكى فيما بعد بأية جهود مثابرة استطاع أن يحقق هذا النصر المعنوي»<sup>(٣)</sup>.

(١) راجع (وصف مختصر لمدينة القاهرة والقلعة إلخ) .. بقلم جومار في «وصف مصر»، العصر الراهن، المجلد الثاني. ويذكر جومار من بين الذين يرتادون على الأزهر «فرس - سوريون وأكراد، وعرب من الحجاز واليمن وأفارقة، غربيون».

(٢) «التاريخ العلمي والعسكر إلخ...» المجلد الأول (الحملة) صفحة ٢١٩.

(٣) راجع برتران: «حملات مصر وسوريا» المجلد الأول، الفصل المعنون: شئون دينية. راجع أيضاً فرنسا في أفريقيا» بقلم الكومندان إدمون فيري، الفصل المعنوي: بونايرت والعلم الإسلامي.

وإذ أصبح مفتو المذاهب الأربعة التي تتقاسم الإسلام وكذلك مشايخ الأزهر -  
 فى المجال المدنى أهم أعوان إدارته ومساعدى سلطته اعتادوا على الذهاب إلى مقر  
 القيادة صباح كل يوم، وفقاً لما أملاه بونايرت فى سانت هيلين، وثلاث أو أربع مرات  
 فى العشرة أيام، وفقاً لخطاب كتبه هو إلى مارمون<sup>(١)</sup> Marmont. وكل مرة تعد هذه  
 المحادثات بالنسبة لبونايرت فرصة ليدبر الحديث حول الدين، وأن ينطلق فى مناقشات  
 دينية حقيقية تسمح له بها درايبته بالقرآن وتعوض تدريجياً فجوات معلوماته. وفى  
 مثل هذه المدرسة، سرعان ما أصبح « كالتالاب » وقد اختبر ذلك النوع من المناقشات  
 كأكثر المشايخ حنكة وأكثرهم رهافة. وبانتهازه فرصة انتصاراته الشخصية، كان يضع  
 محدثيه فى مواقف حرجة بذكر أجزاء من القرآن تنبئ عن مقدمه من الغرب إلى  
 ضفاف النيل. فهل كان بوسعه أن يهزم المماليك لولا حماية الله ومحمد له<sup>(٢)</sup>؟ وهل  
 كانت هذه الحماية ستعطى له لو لم يكن المماليك يستحقون الجزاء ولو لم يكن هو  
 يستحق مساندة الله ومحمد؟ وحينما شعر أنه قد تم تملق المشايخ والمفتين بالقدر  
 الكافى بوسائله الناجعة وأنهم قد اقتنعوا بنواياه الحسنة، بدأ يشكو لهم من الأئمة  
 الذين يعملون على إشعال حرب الجهاد فى الأقاليم، ثم ذات يوم قال بحرقه لعشرة  
 منهم بعد أن تأكد من ثقتهم: «إنى بحاجة إلى فتوى من جامع الأزهر تأمر الشعب  
 أن يؤدى قسم الولاء». وأصيب المشايخ بالذهول والذعر، ثم سرعان ما وجدوا  
 مخرجاً، فيما أنه شديد الإعجاب بهذا القدر بمحمد ويُرجع نجاحاته إلى حماية الله  
 للإسلام، فلماذا لا يسلم هو وجيشه بأسره؟ وعندئذ لن يترددوا فى أن يقدموه  
 للشعب على أنه مرسل من قبل الله، كصديق للنبي، وسيستمع الجميع لندائهم.

(١) «أذهب إلى الشيخ المسيرى وأبلغه أننى ألتقى ثلاث أو أربع مرات فى العشرة أيام،  
 مع رؤساء الشرع وأهم زعماء القاهرة، وأنه لا يوجد شخص أكثر منى اقتناعاً ببقاء وقدسية الدين  
 الإسلامى» بونايرت إلى مارمون، ١١ فروكتيدور - ٢٨ أغسطس ١٧٩٨. مراسلات نابليون، رقم  
 ٣١٤٧.

(٢) هذا مرجعه فهمهم الخطأ للإلهية وللقرآن (الترجمة).

وسيتكالب المصريون والعرب تحت راياته . وفى هذه المرة كان الدور على بونايرت أن يشعر بالخرج .

وحتى إن لم يكن موقفهم إلا مناورة تسويقية، فإن اقتراح المشايخ قد وضعه فى مازق . فإنه قد تمت محاصرته عن قرب، وأن مسألة علاقته بالإسلام قد أدت إلى إثارة مسألة اعتناقه الإسلام كشرط أساسى للولاية الدينية التى كان يطمع فيها . وفيما بعد، وبينما كان يتحدث عن ذكريات هذه المساومة الغربية تنوعت آراء بونايرت حول الموقف الذى سمحت له الظروف بتبنيه . فتارة يقول إنه لو كان أسلم لاضطر جيشه إلى اتباع خطاه<sup>(١)</sup>، وتارة أخرى يعترف أن الاحتمال كان من المستحيل<sup>(٢)</sup> . وفى واقع الامر، فإن كانت مجرد تعديلات فى زى فرق الجيش كانت تقابل باعتراضات كان على بونايرت أن يرضخ لها، فمما لا شك فيه أن الاعتناق الجماعى للإسلام لم يكن الجيش ليقره أبداً<sup>(٣)</sup> . ولا شك فى أن بونايرت قد أدرك ذلك، حينما وجد نفسه أمام هذا العرض غير المتوقع، ولكى لا يرد بالرفض، فقد قرر المخادعة .

فأجاب قائلاً: هناك افتراضان يعترضان إمكانية اعتناقه هو وجيشه الإسلام وهما: الختان وتحريم شرب النبيذ . والأهم من ذلك، أنه قبل أن نصل إلى عملية الاعتناق هذه، فيجب أن تمنح فرق الجيش الوقت الكافى للتعرف على عقائد الإسلام وممارساته، وأنهم بحاجة إلى عامين لتحقيق ذلك . أما فيما يتعلق به، ونظراً لاعتناقه بأن دين محمد ديانة ممتازة، فقد وعد ببناء مسجد على نصف فرسخ حيث يمكن للجيش بأسره أن يقف فيه . وسرعان ما أمر بإعداد الرسومات الخاصة بالنقود اللازمة .

---

(١) « ومع ذلك، فلم يقال أنه كان من المحال أن الظروف كانت قد تضطرنى إلى تبني الإسلام الا يتصور أحد أن كل امبراطورية الشرق وربما تبعية كل آسيا لا تستحق أن أرتدى العمامة والخف؟ ففى حقيقتية الأمر ذلك هو كل ما كان سيكون فى الأمر . لم تكن سنفقد إلا سراويلنا وقبعاتنا، أقول نحن، لأن الجيش، فى الحالة التى كان عليها لم يكن ليتردد بل ولما رأى فيها إلا ضحكا ومزاحاً وارد فى شرفيس المرجع المذكور صفحة ٢٣٨ .

(٢) «التاريخ العلمى والعسكرى إلخ...» المجلد الأول (الحملة) صفحة ٢٢٠ .

(٣) والدليل على ذلك كل السخرية التى لحقت باعتناق منو الإسلام .

وبعد عدة مشاورات أحضر المفتون الأربعة إلى بونابرت فتوى وقد كتبوها ووقعوا عليها. وكانت مرضية حول مسألة الختان، لكنها صارمة فيما يتعلق بالنبيذ. وبناء على اقتراح من أحد مشايخ الأزهر، تم اختصار الفتوى إلى جزئين الأول والذي رغم مساسه بإحدى العادات الطقسية للإسلام، أقرت فيه بقبول الفرنسيين مع المسلمين، وما أن تم بهذه الصورة تبادروا بإذاعته في كل المساجد. أما الجزء الثاني، فقد أخضعه المفتون إلى مناقشة جديدة وأرجعوها إلى مكة، وأخيراً أحضروا فتوى لبونابرت، تقوم بتفسير القرآن في هذه النقطة بصورة لصالح عادات الجنود «وقد تم إعلان البيان من أعلى مآذن المسجد الكبير وسرعان ما تداولها مؤذنو المساجد الأقل شأنًا ليعلموها على الشعب ساعة الصلاة»<sup>(١)</sup>. فهل يتعين، علينا أن نفهم، حسب تأكيدات مؤلفو «التاريخ العلمي والعسكري للحملة» أنه «منذ هذه اللحظة استتبت الثقة الكاملة؟» ستكون مبالغة شديدة. فلا المشايخ الذين انصاعوا لرغبة بونابرت ولا الشعب الذي وجهوا إليه نصائحهم كفوا عن اعتباره هو شخصياً وجنوده رجالاً أغراباً عن إيمانهم. بل ولا حتى تخلى القائد الأعلى والجيش بأسره عن مظاهر المسيحية ولم ينزع عنهم صفة الكفر هذه والتي لم تكن لتمحى إلا باعتراف الإسلام، شريطة أن يكون هذا الاعتناق صريحاً مخلصاً. فلم يكن من المهم «الجيش لم يرتد الكنائس في إيطاليا أن يرتادها في مصر»<sup>(٢)</sup> أو إن أى أثر خارجي للمسيحية بل أية عادة دينية كانت ستختفى من صفوف الجيش». فرغم ابتعادهم عن الكاثوليكية، لم يكن الفرنسيون ولا قائدهم أقل كفرةً من أجل ذلك. وإنما كانوا كفاراً متسامحين، حسنى النوايا لاتباع النبي، وكان عدم اكتراثهم الدينى هو الجانب الوحيد الذى كان يمكنه أن يفيدهم فى إسهامهم فى فرض الثقة بتسامحهم وبحسن نواياهم.

ولقد جاهد بونابرت ليعرب عن ذلك بأفعاله. فإذا ما قام بعض الجنود وهم

(١) راجع برتران (حملات مصر وسوريا) المجلد الأول، صفحة ٢١٨.

(٢) راجع الكومندان فيرى المرجع السالف الذكر، بناء على إملاءات نابليون فى سانت

هيليرن حول حملاته فى مصر وسوريا.

يعملون فى بعض التحصينات بهدم بعض المقابر يتم لومهم، وتوقف الأعمال، ويعاد بناء المقابر ويسمح للمفتى بمواصلة التقاليد المتبعة<sup>(١)</sup>. هل كانت إدارة مسجد السلطان حسن سيئة رغم الهبات الثرية التى يمتلكها؟ كان بونابرت يذهب لزيارته فجأة فى ساعة الصلاة ويُحضر الأئمة ويقوم بتوبيخهم ويأمر بإجراء تحقيق ينتهى بإلزام المخلّون بإعادة ما استولوا عليه<sup>(٢)</sup>. وإذا ما أتت اللحظة التى ينتظرون فيها عودة الحجاج الذين ذهبوا إلى مكة والمدينة، يعلق بونابرت أهمية قصوى على أن تتمكن القافلة - مثل كل عام - من أن تصل إلى القاهرة سالمة. وإعطائه الأمر إلى برتييه الذى يكون الديوان يكتب قائلًا: «إن همك الأول هذا المساء أن تجعل الديوان يكتب للقافلة أن تحضر بلا أية مخاوف<sup>(٣)</sup> ولدرايته بدور هذا الحج السنوى فى الحياة الدينية للإسلام، فإن بونابرت يدرك تمامًا الخطأ الذى سيقع على الاستعمار الفرنسى فى مصر، إن أمكن القول، أن يمس إتمام هذا الواجب المقدس. فلم يكن الأمر يتعلق بالمصريين وحدهم وإنما باللبيين والتونسيين والجزائريين وسادة المغرب الذين يستخدمون جميعاً الأراضى المصرية للوصول إلى البلاد المقدسة ويعودون منها، كما ستثير غضب أهل المدينة ومكة الذين سيستفيدون بسخاء من هذا التدفق السنوى. أى أن سمعة الحكومة الفرنسية فى كل شمال أفريقيا من جهة، وفى الحجاز من جهة أخرى، كانت تتعلق بالعقبات أو التسهيلات التى كان بونابرت سيضعها فى طريق الحجاج، وكذلك العداة أو المساندة التى يمكن أن يلقاها من جانب أو آخر منها.

فثاكد عودة حجاج مكة إلى القاهرة يعد أحد الإجراءات الفورية التى أتخذها بونابرت لإخلاء مداخل ضواحي العاصمة فى الجنوب وفى الشرق، من مقترحات التسوية التى أرسلها إلى مراد بك ومن العمليات العسكرية التى يقودها ضد إبراهيم بك<sup>(٤)</sup>. وقد انقسم الحجاج إلى عدة مجموعات، وفى أوائل شهر أغسطس كانوا

(١) راجع برتران (حملات مصر وسوريا) المجلد الأول صفحة ٢٣٩.

(٢) المرجع السابق صفحة ٢٣٠.

(٣) ٧ ترميدور ٢٥ يوليو. راجع لاجونكبير المرجع السابق المجلد الثانى، صفحة ٢٨٣.

(٤) راجع لاجونكبير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٣٤٤ - ٣٤٥.

على مسافة قصيرة من القاهرة، أو كان بعضهم قد وصل فعلاً. وسرعان ما بدأوا في الظهور حتى أعطى بونابرت أوامره بأن يحسنوا استقبالهم<sup>(١)</sup>. وهكذا تم استقبال أول وحدة منفصلة عن القافلة الرئيسية في أواخر يوليو. وتلى هذه الوحدة، في الثالث من أغسطس، مجموعة من الحجاج من طرابلس الذين عسكروا في بولاق على ضفاف النيل. إلا أن القافلة الرئيسية بقيادة أمير الحج<sup>(٢)</sup> صالح بك، فقد تم الإعلان عن وصولها عند ضواحي بلبيس، في شمال القاهرة. وكانت معرضة للسقوط في أيدي إبراهيم بك الذي كان يحوم في هذه المناطق مع مماليكه. وقام بونابرت من ٢ إلى ١٤ أغسطس بعدة عمليات عسكرية متتالية لمطاردة إبراهيم بك حتى سوريا، لكنه لم يتمكن من منعه أن يأخذ أمير الحج معه في هروبه. وعلى الأقل تمكنت بحمل القافلة التي تم اللحاق بها في بلبيس من العودة إلى القاهرة تحت حماية الجيش حيث دخلوها وقد تقدمتهم فرق الموسيقى الفرنسية. ولم يتغيب منهم إلا أكثرهم ثراء، أثرى العصابة الذين خشوا أن يقوم الفرنسيون بتفتيشهم، فأثروا التعرض لملاحقة العرب لهم بأن ألقوا بأنفسهم في الصحراء خلف إبراهيم بك وأمير الحج. ووقع لهم ما خشوه فقد أخذ منهم العرب نقودهم، وحاجاتهم وركائبهم وتركوهم خلاء في حالة يرثى لها من الحزن. ولم يكتف بونابرت بإنقاذهم من هذا المازق بأن أرسل لنجدتهم، وإنما أرسل من يتبعون هؤلاء اللصوص وإعادة الغنائم إلى الحجاج غير الحريصين الذين سرعان ما انضموا في القاهرة إلى المواكب السابقة.

ومثلما اهتم بونابرت بحماية عودة آخر حجاج إلى القاهرة، اهتم أيضاً بتأكيد سلامة الحج التالي. فقد جرى العرف أن تقوم السلطات المدنية بتعيين رئيس الحج المقبل في موعد مبكر، والذي يتعين عليه ترتيب الموكب تحت قيادته. منذ ١٦ فروكتيدور (٢ سبتمبر) قام بتوليه وظائف أمير الحج لباشا الإسكندرية، مصطفى بك<sup>(٣)</sup>. وتولى هو شخصياً هذه التولية أمام الديوان، وقد أعلنها على الشعب

(١) راجع لاجونكبير المرجع السابق المجلد الثاني صفحة ٣٥١.

(٢) هذا اللقب الذي يعنى رئيس الحجاج هو اللقب الذي يمنح لقائد القافلة.

(٣) راجع لاجونكبير المرجع السابق المجلد الثالث صفحة ٨.

بالمدفعية وقد كسى مصطفى بك بالعباءة الخضراء المحلاة والمبطنة بالفراء الأبيض<sup>(١)</sup>. وبعد أن حصل على حلية مرصعة بالماس، اقتيد أمير الحج الجديد إلى داره على ظهر جواد مطمّم بسخاء، كان القائد الأعلى قد أهداه له، ومحاطاً بالجند بينما أطلقت المدفعية ست طلقات راحت سريرات القلعة ترددها<sup>(٢)</sup>. وبناء على طلب بونايرت تم إبلاغ شريف مكة وكافة السلطات البربرية، أي بكوات طرابلس، وتونس، والجزائر بخطاب من مشايخ وعلماء القاهرة.

وذلك لأن بونايرت قد أدرك إجمالاً الترابط الفريد للعالم الإسلامي والتداخل المذهل الذي يكون مختلف عناصر هذه الكتلة على الرغم من البحار والصحارى. فقد كان يعلم أنه حتى لو كان ذلك التعيين قد تم قبوله في مصر، فقد كان يمكن أن يأتيه أى تهديد من الإثارات القادمة من الخارج. لذلك أمتدت أعماله الدينية وسياسته الإسلامية إلى ما وراء الحدود المصرية، إلى القسطنطينية، مقر الخلافة، وإلى مكة، المركز الدينى للإسلام، وإلى سوريا وطرابلس وطوال الساحل الأفريقي حتى المغرب، فلقد حاول بونايرت أن يحصل على الاعتراف به وبصداقته كحامٍ للإسلام من مختلف السلطات التى تحكم هذه البلدان.

وقد أرسل فى أوائل أغسطس إلى قنصل فرنسا فى طرابلس خطاباً يكلفه فيه إبلاغ إليك أن «رعاياه يحظون بعناية خاصة فى مصر»<sup>(٣)</sup>. وبعد خمسة عشر يوماً كتب إلى نفس القنصل خطاباً ثانياً: «أحيط البك علماً بأننا سنحتفل غداً بعيد مولد النبى بأكبر قدر من الفخامة وأن قافلة طرابلس ستغادر غداً أيضاً، وقد حميتها وقد امتدحونا. حاول حث البك على إرسال الكثير من الخراف إلى الإسكندرية وأن يحيط رعاياه علماً بأن القوافل تحظى بحمايتنا وأنا قد قمنا بتعيين أمير الحج»<sup>(٤)</sup>.

- 
- (١) راجع «التاريخ العلمى والعسكرى إلخ»، المجلد الثانى (الحملة) صفحة ٨٠.  
(٢) راجع ايتيين جوفروا سانت هيلير - «خطابات مكتوبة من مصر»، صفحة ٨٤ باريس، هاشيت ١٩٠١.  
(٣) راجع لاجونكبير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٤٩٤ هامش ٢.  
(٤) راجع لاجونكبير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٤٩٦. خطاب ١٨ أغسطس أول فوكتيدور.

ولكى يضمن وصول هذين الخطابين إلى صاحبهما وليضمن مزيداً من تبادل المراسلات بين مصر وطرابلس، فقد استخدم بونايرت مهارته واستعان بصالح رئيس حجاج طرابلس، الشيخ أبو القاسم. وقد أبرم اتفاق بين هذا الشيخ ومترجم القيادة العليا فتور، يقوم بمقتضاه أبو القاسم بتسليم جمال ومرشد للمراسلة الفرنسية الذى سيعود إلى القاهرة بإجابات قنصل فرنسا<sup>(١)</sup>.

وكانت استعدادات الزعيم الروحي والدينيوى الذى يحكم مكة تحت لقب الشريف ذات أهمية أخرى فى نظر بونايرت غير استعدادات بك طرابلس. وقد هدفت سياسة الباب العالى دائماً إلى الإقلال بقدر الإمكان من التأثير الدينى لهذا التابع للسلطان. وقد كان موقف بونايرت على نقيض ذلك تماماً، إذا اعتمدت سياسته على الإغلاء من قدر الشريف غالباً، الذى يجد نفسه، بحكم احتياجاته، فى تبعية الاقتصاد المصرى. كما عمل على تنشيط العلاقات التجارية والسياسية والدينية معه، بحيث يأمن جانبه عرفاناً بجميل رد اعتباره ومصالحه الشخصية<sup>(٢)</sup>.

وقد كتب له بونايرت مرتين على مدى يومين. «وإذ أحيطكم علماً بدخول الجيش الفرنسى إلى مصر، أعتقد أنه على أن أؤكد لكم نيتى الخالصة فى أن أحى حجاج مكة بكل ما فى يدي من وسائل. إن كافة المساجد والمؤسسات التى تمتلكها مكة والمدينة فى مصر ستستمر ملكاً لهما كما فى الماضى نحن أصدقاء المسلمين ودين النبى، ونرغب فى القيام بعمل كل ما يرضيكم ويكون صالحاً للدين»<sup>(٣)</sup>. وفى الخطاب الثانى<sup>(٤)</sup> راح بونايرت يجدد نفس العروض مضيئاً تعيينه لأمير الحج.

---

(١) راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٤٥١ خطاب ١٧ ترميدور ٤ أغسطس.

(٢) راجع برتران (حملات مصر وسوريا) المجلد الأول صفحات ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٣) راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٥٣٩. خطاب ٨ فروكتيدور ٢٥ أغسطس.

(٤) خطاب ١٩ فروتيدور ٢٧ أغسطس. راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٥٣٩.

إلا أنه كان يخشى أن تكون كلمة أحد الكفرة قريبة لدى شخص في مثل هذه  
القدسية لذلك أصر على أن تذهب سلطات عليا دينية مسلمة إلى شريف مكة  
لتضمن الاستعدادات التي يعلنها. وذلك هو هدف الخطاب الذي طلب من مشايخ  
وعلماء القاهرة أن يكتبوه له في ٢٠ ربيع أول ١٢١٣ (١٥ فركتيدور أول سبتمبر).  
وكان عبارة عن سرد لانتصارات الجيش الفرنسي على المماليك، ومدح في أخلاقيات  
ومشاعر الجنرال حيال الدين الإسلامي، وإحصاء لكل ما أعرب عنه هو وجنوده:  
كالإجراءات التي اتخذها لتأكيد حرية العقيدة، وحماية الحجاج، والاحتفال بالأعياد  
المعتادة وتعيين أمير الحج، كما أشاد بما قام به بونايرت والفرنسيون من حل منظمة  
مالطة الدينية، وإسقاط سلطة البابا، ومدح استقامتهم الإسلامية لأنهم يعترفون  
بوحدانية الله ويبجلون النبي والقرآن. وكان هذا الخطاب المرسل إلى شريف مكة،  
يجب أن يكون وفقاً لتصور بونايرت، بمثابة بيان إذ أنه أعطى أوامر إلى كليبر ليطلبه  
في الإسكندرية. ويرسل له ٦٠٠ نسخة إلى القاهرة وأن يقوم بتوزيع ٤٠٠ في منطقة  
الجزر<sup>(١)</sup>.

وفي نفس الوقت الذي كان يسعى فيه بونايرت إلى تدعيم مكانته في طرابلس  
ومكة ومنطقة الجزر، كان يحاول نفس الشيء مع فلسطين وسوريا. إذ أن خطراً كان  
يдахمه من هذا الجانب أكثر إلحاحاً وأكثر خطورة من أي جهة أخرى. ففي عكا  
يوجد بالفعل حاكم شبه مستقل، على أكبر جزء من سوريا وفلسطين، وقد اشتهر  
هذا الباشا باضطهاداته للفرنسيين. إنه أحمد باشا الجزائر. ولم تكن صحراء غزة تمثل  
عقبة أمام قوات ذلك الطاغية الشرس المتعصب والقوى، وهي قوات متعددة نسبياً،  
ومكونة من سلاح مشاة وفرسان وكان لا يكف عن التدخل في المنافسات بين بكوات  
مصر وأرسل جيشه إلى مصر. فإذا ما تمكن من تبني قضية إبراهيم بك، اللاجيء في  
مقاطعاته، وأن يأخذ بالدفاع عن حقوق السلطان، أو حتى حقوق الإسلام، فيمكنه  
أن يوجد في موقف يؤدي إلى مضايقات جادة للفرنسيين. لذلك سارع بونايرت ليؤكد

(١) لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثاني صفحة ٥٣٩.

حسن نواياه للجزار . فكتب له قائلاً<sup>(١)</sup> : « حينما حضرت إلى مصر لأحارب البكوات فقد قمت بشيء عادل ومطابق لمصالحك ، بما أنهم كانوا أعداءك . . فلم آت مطلقاً لشن الحرب على المسلمين . ويجب أن تعرف أن أول ما أهتمت به في مالطة كان الإفراج عن ٢٠٠٠ تركي من القابعين في العبودية منذ عدة سنوات . وعند وصولي إلى مصر قمت بطمئنة الشعب وحميت المفتين والأئمة والمساجد . ولم يحظ حجاج مكة أبداً بمثل الحفاوة والصدافة التي استقبلوا بها كما احتفلنا لتونا بمولد النبي ببذخ أكثر من أى وقت مضى » . وقد سلم هذا الخطاب الضابط ، رئيس السرية بوفوازان ، المكلف بأن يشرح شخصياً للباشا أن بونابرت راغب فى أن يعيش معه فى سلام وأن يقوم ، فى مقابل ذلك ، بكل الخدمات التى يمكن أن يتطلبها حسن سير التجارة والصالح العام . وأنه ليست لديه أية نية ليفزرو القدس ، وأخيراً إن المسلمين ليس لديهم أصدقاء أكثر من الفرنسيين . والخطاب فحسب هو الذى وصل إلى الجزائر ، إذ أنه رفض استقبال بوفوازان Beauvoisin وأعادته إلى مصر دون أن يستمع إلى مبرراته<sup>(٢)</sup> .

وتم إسناد مهمة مماثلة إلى رسول آخر هو مايي دى شاتورنو Maily de Châteaurenaud ، الذى أرسله بونابرت إلى اللاذقية وحلب<sup>(٣)</sup> . « نحن لم نعد من أولئك الكفرة لأزمة البرابرة الذين كانوا يأتون لمحاربة عقيدتكم ، نحن نعرف أنها سامية ، وسندخلها وقد أتت اللحظة التى يتجدد فيها الفرنسيون وسيصبحون أيضاً مؤمنين حقيقيين » . هكذا تحدث بونابرت إلى باشا حلب فى الخطاب الذى حملة مايي دى شاتورنو<sup>(٤)</sup> .

وفى نفس أثناء هذه المحاولات المتتالية مع السلطات التابعة للسلطان تتواكب

- 
- (١) فى ٥ فركتيدور ٢٢ أغسطس . راجع لاجونكبير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٥٣٤ .  
(٢) راجع لاجونكبير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٥٣٦ - ٥٣٩ « والتاريخ العلمى والحربى إلخ » المجلد الثانى ( الحملة ) صفحة ٢٤٧ .  
(٣) راجع لاجونكبير المرجع المذكور مجلد ٣ صفحات ٦٦ - ٦٨ .  
(٤) التاريخ العلمى والعسكرى إلخ المجلد الثانى ( الحملة ) صفحة ٢٤٦ .

المحاولات التي أشرنا إليها سالفاً للعمل في نفس مركز الامبراطورية، في القسطنطينية، والدخول في علاقات مباشرة مع الباب العالي.

أى أن المراسلات قد امتدت علمياً إلى كل العالم الإسلامي العثماني ومن خلالها، فإن السياسة الإسلامية لبونابرت، إضافة إلى الخطابات التي سيرسها إلى تيبو صاحب Tippoo Sahib ، وسلطان دارفور، وسلطان المغرب، قد هدفت إلى الاتصال بمجمل العالم الإسلامي، باستثناء فارس وآسيا الوسطى. ومثل هذه المراسلات الواسعة النطاق، والتخطيط لمثل هذه السياسة الخارجية العريضة، كانت بلا شك تتعدى الاحتياجات الفورية لحماية مصر من التهديدات أو المؤثرات الخارجية. وبعيداً عن هذا الاهتمام الدفاعي فإنها تتضمن هدفاً أكثر إيجابية ستؤكدده أفعال وعبارات لبونابرت تكشف عن وجودها في ذهنه. فحينما تسلم من الإدارة مهمة تنفيذ المشروع الذي اقترحه تاليران للقيام بحملة على مصر، فلم يمنع بونابرت خياله، الذي انجذب إلى مصر والشرق أثناء حملته على إيطاليا، من أن يوسع المهمة التي أُسندت إليه. فدون حتى أن يتحدث عن إمكانية حملة على الهند، والتي لعله كان قد حصل على موافقة باريس بها، ألم تكن له نظرة حول الشرق ليست قاصرة على حدود مصر؟ إن مشروع التدخل في سوريا سواء بموافقة الجزائر، إذا ما استطاع أن يكسبه إلى مصالحه، أو بواسطة السلاح في حالة رفضه، كان على أى حال في البداية من بنات أفكاره: فلا يمكن أن نفسر بطريقة أخرى العرض الذي عرضه على مراد بك، منذ أول أغسطس ١٧٩٨، بمنحه إمارة في سوريا إذا ما استطاع الجيش أن يمد عملياته إلى هناك. وإذا ما كان الحظ قد سنده أمام عكا، ترى أى تطور كان سيضيفه على مهمته الشرقية؟ أكان بسبب القيمة الجوهرية لسوريا أنه صاح إن الحظ قد خانته أمام عكا؟ من الصعب الإقرار بذلك. إذ يبدو جلياً أن بونابرت في الواقع قد رأى في غزو مصر الشرط المبدئي والمرحلة الأولى لمشروع أكثر اتساعاً وأكثر ضخامة، والذي لم يعرب عنه أبداً بوضوح وإنما كان يحاول أن يخلق في الشرق البحر أوسطى بعد أن يقوم بتحويله، عملية تحول رهيب في صراع فرنسا الجمهورية مع أوروبا الملكية. وأن مصر لم تكن بالنسبة له

سوى قاعدة عمليات لعملية أكبر بكثير من الحملة الميدانية، وفي نفس الوقت العتلة التي سيمكن بواسطتها تحريض العالم الإسلامي بأثره. وأن الأمر ليس مجرد حماية مصر من دعاية معادية للسيطرة الفرنسية، وإنما تمهيد الطرق لأهداف لاحقة ستؤدي إليها سياسته الإسلامية بإطالها على الخارج، بحثاً عن خلق جو من التأييد والتعاطف والثقة حول نفسه ومصيره في الإسلام بأسره.

لقد رأينا للتوما ادعاه بونابرت لنفسه لدى السلطات الإسلامية في أفريقيا وآسيا، والصخب الذي احتفل به بمولد النبي في القاهرة. فالأهمية المضافة على الاحتفالات المحلية التقليدية والعناية بها من السمات المميزة لعمله السياسي. والعالم الإسلامي تعتريه مناسبات دينية تعد في مصر، وفي كل الأراضي الإسلامية، مناسبة لاحتفالات شعبية كبرى. ومثلما هو كائن في كل مكان آخر، فإن التقاليد المحلية قد أقرت عادة الأعياد الخاصة بالبلد. وحياة الأهالي لها إيقاعها الناجم عن العودة الدورية لهذه الاحتفالات العامة، والتي يعد إلغاؤها في حد ذاته نحساً ودليلاً على قلاقل عميقة، ولم يهتم بونابرت بإبعاد سيطرته عن مثل هذه الآفات التي كان سيؤدي إليها ترك مثل هذه التقاليد التي يبجلها الشعب فحسب، وإنما حاول أن يجعلها تستفيد من الشعبية التي يمكن أن تكسبها بالبريق المنفرد لمثل هذه الأعياد، والتي كان يزيدها مساهمة السلطات والفرق العسكرية الفرنسية.

ولقد أتاحت له مثل هذه الفرصة بعد دخوله مصر بأقل من شهر. فالنيل، الذي يعد فياضانه العنصر الأساسي للرخاء الزراعي في مصر، كان منذ القدم، لدى المصريين، مجال احتفال هو أقرب من الطقس الديني الذي ظلت ذكراه - الذي احترامها الإسلام - تتواصل كعادة يحتفل بها بصخب عند بداية فيضان الأراضي. فعندما يصل فيضان النهر الذي يبدأ في يونيو، إلى ارتفاع ١٦ قدماً في المقياس الموجود في الطرف الجنوبي لجزيرة الروضة، يفتح الهويس المقام لحجز المياه عند مدخل قناة شق القاهرة. إن فتح هذا السد، ودخول المياه في هذه القناة أو «الخليج» تصاحبه حفلات رسمية وبهجات شعبية. وحينما وصلت الفترة العادية لهذه الاحتفالات،

كان يونابرت عائداً لتوّه من حملته ضد إبراهيم بك، كما علم من جهة أخرى بنياً رهيب هو الفاجعة البحرية في أبي قير التي تركت الجيش بلا أسطول، ومقطوع الصلة مع وطنه الأم، ومحبوس في مصر. فتعويض الانعكاس المعنوي لهذه الهزيمة على الجيش وعلى الأهالي، كان سبباً بالنسبة له ليشارك ويشرك فرقه في احتفالات «عيد النيل».

ففى أول فروكتيدور (١٨ أغسطس)<sup>(١)</sup>، فى السادسة صباحاً، خرج ممتطياً جواده، ومحاطاً بحرس يتداخل فيه ذلك الخليط الذى يحبه - جنراته، وقيادته العامة، كيايا الباشا وأعضاء الديوان، والموللا<sup>(٢)</sup>، وأغا الانكشارية وغيرهم من أعيان البلد. وقد اصطف جزء من الحامية تحت السلاح بطول القناة، وستة أساطيل المراكب المزينة بالأعلام على شطآن النيل. وقام سلاح المدفعية فى الموقع وفى السكنات بتحية وصول الموكب إلى المقياس وإعلان إتمام الطقس الغريب الذى بمقتضاه يتم إلقاء تمثال امرأة، هى عروس النيل، فى المياه. وانضمت إيقاعات الموسيقى الفرنسية إلى الموسيقى العربية بينما كان العمل جارياً لكسر السد. وقام يونابرت بنفسه بتسليم الجائزة لطاغم أول مركب دخلت القناة، بينما ألقى إلى الجماهير حفنات من الملايم، والبس الموللا العباءة السوداء، والنقيب رجاً<sup>(٣)</sup> العباءة البيضاء، كما قام بتوزيع ثمانية وثلاثين قفطاناً لأهم المسؤولين، وحضر كتابة المحضر الخاص بكسر السد وإثبات ارتفاع منسوب الفيضان إلى ١٦ ذراعاً وخمسة قراريط، وشكر الله على هذه النعمة<sup>(٤)</sup>. وقد

---

(١) لقصة هذا الاحتفال راجع لاجونكبير المرجع السابق المجلد الثانى، صفحة ٤٨٠، و«التاريخ العلمى والعسكرى إلخ...» المجلد الأول (الحملة) صفحات ٣٧٤ - ٣٧٥، ولم يكن الاحتفال بزيادة النيل من قبيل الطقس الدينى كما زعم.

(٢) كان من ضمن مهام الموللا الحفاظ على مقياس النيل. راجع فى سلسلة «لكون»، «مصر تحت الاستعمار الفرنسى» بقلم أميديه ريم صفحة ٦٤، باريس دار نشر ديدو ١٨٤٨.

(٣) موظف مسئول عن توزيع المياه. راجع أميديه ريم المرجع السابق صفحة ٦٤.

(٤) وكما فيما مضى - فإن هذا الحصر يلزم المصرين عندما يكون الفيضان طبيياً بدفع المسيرى للديوان الأعلى إلى جانب حصّة سيدنا السلطان «والحبوب الواجبة للأماكن المقدسة فى مكة والمدينة». راجع لاجونكبير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٤٨٠.

فرح الشعب بوفرة الفيضان الدال على محصول وفير، وجرت الجماهير لتساهم في الحفل بالصيحات والتراحم، كما صاحبت القائد الأعلى العائد إلى قصره بالأزبكية، في موكب صاحب من الصياح بل والهتافات. وقد صاحوا من حوله « نعم، لقد أتيت لإنقاذنا بإذن الله الرحيم، لأنك حصلت على النصر وعلى أجمل فيضان جاء منذ قرن، وهما نعمتان لا يسندهما إلا الله ». وفي المساء، كانت شوارع القاهرة المضاءة تفيض بالمارة السوريين والأقباط واليونانيين، أما المسلمون فقد ظلوا في بيوتهم<sup>(١)</sup>.

وبعد عدة أيام أتى موعد مولد محمد، وهو مناسبة احتفالات لا تقل عن أربعة أيام وليال. وباندهاشه لعدم رؤيته بداية الاستعدادات للاحتفال كالمعتاد سأل بونابرت عن السبب وعلم من الشيخ البكرى بأنهم يستعدون بمزاعم خاطئة، هي في الواقع ناجمة عن سوء نيتهم ضد الفرنسيين، لوقف تقليد الاحتفال بهذا العيد<sup>(٢)</sup>. فأمر على الفور بإقامة هذا الاحتفال، واتخذ بنفسه الاستعدادات لإضافة مزيد من البريق بأن يشارك فيها شخصياً. وفي أول يوم (٢ فركتيدور ١٩ أغسطس) البس الشيخ البكرى عباءة من الفراء الأبيض الخاصة بمنصب كبير الأشراف<sup>(٣)</sup>، بسبب هجرة آخر من كان يمثله، وقد تم هذا التنصيب في نفس بيت الشيخ، أما حضور قرابة المائة من رفاقه في الدين، وجلسوا القرفصاء في دائرة على السجادة، مريعين سيقانهم، ممسكين بالمسبحة وجسدهم يتأرجح إلى الأمام والخلف مع مصاحبة قراءة آيات القرآن. وقد جلس القائد الأعلى مثلهم على وسادة ملقاة على الأرض، وقد حافظ طوال مدة هذه الابتهالات الطويلة على هيئة التقى والورع. وما أن انتهت الصلاة حتى شارك كضيف للشيخ في مأدبة على الطريقة التركية، ملتزماً بالعادات والتقاليد المحيطة للولائم الشرقية، التي يستغنون فيها عن الشوكة والسكينة. كما تعلم بعد ذلك ملاذ

(١) راجع عبدالرحمن الجبرتي ترجمة كاردان صفحة ٢٦.

(٢) راجع عبدالرحمن الجبرتي ترجمة كاردان صفحة ٢٧.

(٣) رئيس أشراف القاهرة. راجع أميديه ريم المرجع السابق صفحة ٦٥. ويزعم المؤلف أن بونابرت كان مرتدياً في هذه المناسبة الزي التركي وعلى رأسه العمامة ومرتدياً الحف، وأنه قرأ القرآن مع المشايخ وهو يتأرجح مثلهم برأسه وجسده. إن هذه التفاصيل ملفقة.

الشبيك، الغليون المحلية، والنرجيله والقهوة التركي. وفى المساء، بعد استعراض عسكري باهر، انتقلت القيادة العامة على أنغام الموسيقى العسكرية وأضواء الشعلات عند الشيخ البكرى. وانطلقت المدافع تحية لمحمد بينما كانت السُريجات تضاء فى المدينة. وما أن أتى الليل حتى انطلقت نيران ألعاب الصواريخ فى ميدان الأزبكية، ولعلها كانت أول مرة يراها المصريون.

وظل الصخب الغريب، خليط من البهجة الدنيوية والحماس الدينى، فى الشوارع والميادين أثناء الليل والنهار حتى ٢٣ أغسطس (٦ فروكتيدور). مروضو ديبه وقرود، وساحرو ثعابين، راقصون وراقصات، مغنون ومغنيات، لاعبو أقداح، حواة، لاعبو سيوف، دراويش يهللون ويدورون، أولياء أو «نساك»، قذرين ومرتدين الهلاهيل، يلفتون أنظار الشعب اللاهى أو المتعظ<sup>(١)</sup>.

وقد كتب بونابرت إلى كليبر<sup>(٢)</sup> قائلاً: «كل هؤلاء الناس كان من الممكن أن يتصوروا أننا جئنا بنفس فكرة سان لوى والتي يأتون بها حينما يدخلون الدول المسيحية». ونرى من كل الوقائع التى تقدمت إلى أى مدى امتدت جهود بونابرت ليبدد هذا الشك.

وتم الاحتفال بمولد محمد فى مصر بأسرها فى نفس الوقت مع القاهرة، وحظى بنفس الرعاية من جانب السلطات الفرنسية حينما امتد الاحتلال. أما فى الإسكندرية وعلى حد قول فولفو تاريخ للحملة<sup>(٣)</sup> «فإن كليبر، المريض الغاضب، قد شارك بالكاد غصباً عنه فى هذه المسرحية الهزلية الدينية». وسواء عن طيب خاطر أو غصباً عنه فقد شارك فيها على أى حال. لأنه فى ٥ فروكتيدور ذهب مع قيادته العامة

---

(١) راجع لاجونكبير المرجع السابق المجلد الثانى صفحات ٤٨١ - ٤٨٢، نقلا عن يوميات دى دتروا التاريخ العلمى والعسكرى، إلخ المجلد الأول (الحملة) صفحات ٢٧٧ - ٣٧٨ و«يوميات» فيليب دى تراخ صفحات ٧١ - ٧٢ باريس بلون ١٨٩٩.

(٢) ١٢ ترميدور ٣٠ يوليو وارد فى لاجونكبير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٣١٦.

(٣) «التاريخ العلمى والعسكرى» إلخ، المجلد الأول (الحملة) صفحة ٣٧٨.

لتناول العشاء عند « الكومندان المسلم »<sup>(١)</sup>، الذى جامله بصفة خاصة بأن قدم له « طبقاً من الأرز ذا ثلاثة ألوان ». وفى اليوم الثالث أمر بإطلاق ثلاث طلقات مدافع احتفالاً بمولد النبى وأضاء مبنى القيادة العامة، وفى اليوم التالى رد بدوره على العزومة بأن دعى السلطات المحلية، أعضاء الديوان والأغا، ولكى لا يخل بالآداب العامة حيال ضيوفه المسلمين، الذين قد تصدمهم رؤية النبيذ على مائدتهم، فقد وضع لنفسه مائدة مستقلة بجوار مائدتهم<sup>(٢)</sup>. وفى رشيد، كان المفتى قد امتنع، مثل الشيخ البكرى فى القاهرة، عن اتخاذ التدابير المعتادة لإقامة الاحتفالات حتى يوحى للشعب بأن الفرنسيين قد منعوها<sup>(٣)</sup>. فأمره منو بأن يلتزم بالعرف المتبع ويساهم بنفسه فى ازدهار هذه الحفلات بأن يقيم وليمة عشاء على الطريقة التركية لمشايخ البلد مصحوبة بفرقة موسيقى عربية ورقص من أجل الشعب<sup>(٤)</sup>. وتوجه وبصحبه ضباطه وبعض العلماء والفنانين الموجودين آنذاك فى رشيد، إلى الحفل الليلي الذى أحياه من أطلق عليه فيفان دينون « أول حاكم مدنى »<sup>(٥)</sup>: وكان حفلاً عربياً، منظماً على الطريقة المصرية فى الطريق وقد تحول إلى قاعة استقبال بواسطة الخيام والسجاد واللمبات. وفى هذا الإطار غير المتوقع، أمضى الجنرال ورفاقه الفرنسيون سهرة ممتعة حتى الصباح على مشاهدة الرقص وأنغام الموسيقى المحلية<sup>(٦)</sup>.

وهكذا تم الاحتفال فى مصر، وتحت سيطرة أجنبية فى طريقها إلى الاستقرار، بالأعياد التقليدية، أعياد البلد. ولم تكن هذه الأعياد وحدها التى حاول بونابرت من خلالها البحث عن إرضاء الذوق التلقائى للمصريين للاحتفالات. ففى أول فاندبمبير

(١) لا شك أنه كان أغا فرقة الانكشارية ( المترجمة ).

(٢) راجع لاجونكبير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٥٠٧، وفقاً ليوميات كليبر فى

القيادة العامة

(٣) فيفان دينون «رحلة فى مصر العليا والسفلى» المجلد الاول الطبعة الصغيرة صفحة ١٣٢ .

(٤) لاجونكبير المرجع السابق المجلد الثانى صفحة ٥١٨ .

(٥) ربما كان شيخ البلد .

(٦) راجع «التاريخ العلمى والعسكرى» إلخ المجلد الأول (الحملة) صفحات ٣٧٩ - ٣٨٥ .

( ٢٢ سبتمبر) فى عيد تأسيس الجمهورية، أقيم احتفال فرنسى كبير، حاول القائد العام من خلاله أن يلهب مشاعر الوطنية لدى قواته، وأن يبهر فى نفس الوقت خيال السكان المحليين .

وقبل الموعد بشهر تقريباً<sup>(١)</sup> أعلن عن الاحتفال وحدد الإجراءات الأساسية فى أهم مراكز الحامية . وقد أضاف أعتى شهود مجد مصر القديم إسهامهم فى ذلك اليوم إلى المجد الشاب للجيش الفرنسى : « إن حامية الإسكندرية ستقيم حفلها حول عمود السوارى » الذى ستعلوه الأعلام ذات الألوان الثلاثة .

كما « ستضاء مسلة كيلوباترة » . وفى القاهرة، بعد الاستعراض الذى أقيم فى ميدان الأزيكية، « توجه وفد من كل سرية ليغرس العلم الثلاثى الألوان فى أعلى قمة الهرم الأكبر » . أما « الفرق التى فى مصر العليا فسوف تقيم احتفالاتها وسط أنقاض طيبة » .

وبعد تنسيق شديد الدقة، أقيم الاستعراض العسكرى فى القاهرة فى إطار يجمع على حد عبارة عزيزة على بونابرت، بين الغرب والشرق، بين الجمهورية الفرنسية وأتباعها الجدد المسلمين<sup>(٢)</sup> . وفى قلب الساحة الشاسع، الذى يضم محيطه من الأعمدة أكثر مما لدى فرنسا من محافظات، أقيم مدخلان، أحدهما قوس النصر، الذى رسم عليه الفنان ريجو Rigo لوحة لمعركة الأهرامات، والآخر بوابة كتب عليها بالعربية « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . وعلى واجهتى المسلة القائمة فى منتصف هذه الساحة كتبت بالفرنسية العبارات التالية : « إلى الجمهورية الفرنسية العام السابع » ، و« فى ذكرى طرد المماليك، العام السادس » . وعلى الواجهتين الأخيرين نفس العبارات باللغة العربية . وفى هذا الإطار الغريب، قام بونابرت بدعوة المشايخ أعضاء ديوان القاهرة، وممثلى دواوين الأقاليم، وأغا الانكشارية، وأمير الحج، لمشاهدة احتفال

( ١ ) فى فروكتيدور ٢٨ أغسطس . راجع لاجونكيير المرجع السابق الثالث صفحات ٢٠ - ٢١ .

( ٢ ) راجع فيفان دينون المرجع السابق صفحة ١٣٣ ، ولاجونكيير المرجع السابق المجلد

الثالث صفحات ٢٢ - ٢٣ .

صمم من أجل التأثير في آن واحد على الفرنسيين الذين يشاركون فيه، وعلى الأهالي الذين يشاهدونه، وذلك سواء في الوفد المحيط به، أم وسط الجماهير الكثيفة المتراسة حول الأربكية.

وكل فرق الحامية وقد أضيفت إليها الفرق المحيطة، بأجمل مالديها من ثياب، قد اصطفت في هيئة مربع حول الساحة في مواجهة المسلة الرئيسية. وبعد أن قام بونابرت باستعراضها، جلس على المنصة المرتفعة عند أسفل المسلة، بين سبعة هياكل قديمة تعلوها الرايات، قامت كل الفرق الموسيقية المجتمعة بتنفيذ مارشات عسكرية وألحان وطنية. ثم أقيمت تحت أمر القائد العام تدريبات نارية. وضمت الصفوف في كل سرية على صوت طلقات النار، ثم دخلت الفرق داخل الساحة واصطفت بانتظام لتستمع إلى قراءة البيان الذي وجهه لهم القائد العام الذي راحوا يحيونه بصيحات: «تحيا الجمهورية!» ثم أحضرت كافة الأعلام والألوية عند المنصة لاستلام الشارات التي تذكر بانتصارات الجيش على المماليك، من أيدي بونابرت. وبعد عزف نشيد «المارسييز» ونشيد «الرحيل» ونشيد آخر كتب كلماته بارسفال جرانميزون ولحنه ريجيل، انتهى الاحتفال العسكري بعرض مهيب.

ثم أقيمت مأدبة في ذلك اليوم بالقيادة العامة، جمعت عليه القوم المحليين والسلطات الفرنسية العسكرية والمدنية. وكانت النقوش والرسومات التي تزين قاعة الاحتفالات، مثلها مثل النقوش التي زينت المكان الذي جرى فيه الاستعراض، ترمز إلى تقابل العنصرين اللذين يلتقيان. «فمن كل جانب كانت الرايات التركية ترفرف متداخلة مع الرايات الجمهورية، وفي أعلى حزم الأسلحة تتداخل الهلال وقبعة الحرية، القرآن وحقوق الإنسان»<sup>(١)</sup>.

ورفع برتييه النخب قائلاً: «في طرد المماليك وسعادة شعب مصر». وبعد الظهر أدت مباريات الخيل في الأربكية إلى مواجهة الأبطال العرب والفرنسيين. وفي المساء،

---

(١) التاريخ العلمي والعسكري إنج المجلد الأول (الحملة) صفحة ٣٨٣.

بعد الألعاب النارية، حولت الإضاءات الباهرة الميدان إلى قاعة رقص شاسعة، حيث راح الجند يرقصون على أنغام الموسيقى النحاسية التي يتخللها من وقت لآخر طلقات المدافع.

وعلى حد قول المعاصرين<sup>(١)</sup> - الذين تتسم أقوالهم باللهجة المزدرية لتعليقات عبدالرحمن الجبرتي التي يخص بها هذا الحفل الضخم - فإن جماهير الأهالي الفضولية والمتمالكة، قد حضرت هذه الأحداث دون أن يبدو عليها الانبهار. وعلى أى حال إنها لم تنبهر أبداً إلا بعد فرق الجيش، ودقة تحركاتهم وتطور أسلحتهم. وهذه النتيجة غير الكاملة وإن كانت مجدية، هي ما حاول الاستعمار الحديث الحصول عليه، منذ ذلك الوقت، بمثل هذه الاستعراضات للقوات.

ونفس الإجراءات وفى الحدود التي سمحت بها الإمكانيات المحلية، فإن نفس الاستعراض العسكري قد أجرى بلا تهديد، بمناسبة العيد السابع للجمهورية الفرنسية، فى كافة النقاط المحتلة فى مصر، ونفس الجهود لإظهار الأخوة الفرنسية المصرية، قد بذلت فى كل مكان لنفس الغرض.

وبفضل وحدة وجهات النظر التي استطاع بونايرت أن يقيمها ويحافظ عليها بينه وبين ضباطه، فقد كانت سياستهم المحلية بصفة عامة مماثلة لتلك التي مارسها هو فى القاهرة.

فى نفس الوقت الذى كانت تقع فيه عملياتهم الحربية أو البوليسية ضد مراكز الثوار، فإن حكام الأقاليم نفذوا التنظيمات الإدارية التي أملاها بونايرت، وأقاموا الدواوين، وقاموا بتعيين الآغاوات، وكونوا فرق الانكشارية. ولقد أصر بونايرت على ألا يبدؤوا بالخطأ من جانبهم فى علاقاتهم مع الأهالي. وعندما كان يلاحظ غلطة من جانبهم أو خطأ فى التكتيك، كان يبادر بلومهم. فكتب إلى زاينوشك قائلاً<sup>(٢)</sup>

---

(١) راجع خاصة «التاريخ العلمى والعسكرى المكتوب استناداً إلى شهادات عيان معاصرين».

(٢) راجع لاجونكيير المرجع السابع المجلد الثالث صفحة ٧٨، ٢ فروكتيدور - ٢٨

أغسطس.

(٦م - حملة النافقين)

« لا أقر قيامك باعتقال الديوان دون أن تتأكد إن كان مذنباً أم لا، وأن تقوم بإطلاق صراحه بعد اثني عشرة ساعة. إنها ليست الوسيلة التي ستكسبهم إلى صفك. يجب أن تدرس الشعوب التي توجد لديها، وأن تميز من هم أكثر ميلاً كى تستعين بهم أو تستخدمهم، يمكنك من وقت لآخر القيام بالردع أحياناً لكن بصورة عادلة وقاسية، لكن لا تقم أبداً بما يمكن أن يوصف بالنزوة أو الاستخفاف ».

وحيثما كان أحد الزعماء المحليين، الشديد التأثير وسط معاصريه، كان يبدي استعداداً للتعاون مع الغزاة، لم تهمل أية وسيلة لوضعه في جانب مصلحة الفرنسيين، حتى وإن كان قد أبدى تجاههم فيما مضى أية مآخذ، وذلك كان الوضع مثلاً مع الأمير إبراهيم الذي عينه كليبر مسئولاً عن إدارة دمنهور وأربع قبائل مجاورة، وقد أسند إليه رتبة أغا ومرتباً مناسباً<sup>(١)</sup>.

وحيثما بدأ الموظفون المحليون يتصرفون بصواب، سرعان ما تمت مكافأة أمانتهم وإخلاصهم كما تم تشجيع حماسهم بكافة أنواع الوسائل الطيبة. وتلقائياً، بل وسباقاً لأوامر بونابرت، قام كليبر بمنح مرتباً لأعضاء ديوان الإسكندرية<sup>(٢)</sup>.

(١) راجع لاجونكيير المرجع السابع المجلد الثالث صفحة ٧٨، ٢ فروكتيدور - ٢٨ أغسطس.

(٢) « كليبر، حياته ومراسلاته » بقلم جال بايول، باريس، ديدو ١٨٧٧ صفحة ٣٠١ قرار ٢١ أغسطس ١٧٩٨: « كليبر، إلى الذين هم الأكثر أمانة والأكثر استقامة بين الرجال، إلى الذين هم زينة كل العلماء، إلى الذين يرتبون وينظمون بأحسن صورة ممكنة كل المسائل المتعلقة بسكان الإسكندرية... إلخ... إلخ... اعلموا أيها الأصدقاء المجلدون أنه أخذاً في الاعتبار أن الأوقات = التي تمضون بها الشؤون العامة يجب الطبع أن تؤخذ على حساب أعمالكم الخاصة، وأنه بالتالي من العدل والإنصاف أن نعوضكم، قررت أن يدفع لكم في نهاية كل شهر مكون من ٣٠ يوماً ما يلي:

إلى الوجيه حاج حسن أبو عوف ..... ٤٠٠٠  
إلى الوجيه إبراهيم أبو العبير، منفذ القوانين ..... ٤٠٠٠  
إلى الوجيه مصطفى الصران، منفذ القوانين ..... ٤٠٠٠  
إلى الوجيه الحاج حسن أبو ال، منفذ القوانين ..... ٤٠٠٠  
إلى الوجيه الحاج حامد ازن أغلو، منفذ القوانين ..... ١٤٠٠  
=

وقد كان أغا الانكشارية يرغب في عباءة وفرس مزخرف على الطريقة التركية، فقد قام كليبر برجاء بونابرت أن يرسلهما له في القاهرة، وقد أصر على أن تعاد له الممتلكات التي كانت المماليك قد صادرتها منه<sup>(١)</sup>.

وقمت حماية حجاج مكة في كل مكان مثلما تمت حمايتهم في القاهرة. وكان ٢٦٠ حجاً من طرابلس أبحروا عن طريق النيل من القاهرة إلى رشيد، فقام منو بإركابهم على أربعة مراكب إلى الإسكندرية تعلقها الرايات الثلاثية الألوان. وبما أن الأسطول الإنجليزي قد لاحظهم وأجبرهم على العودة إلى داخل الميناء، فقام منو بإركابهم هذه المرة تحت رايات مغربية. وعند وصولهم الإسكندرية، استقبلهم كليبر وزودهم بسفينة كبيرة ليبحروا إلى طرابلس<sup>(٢)</sup>. ومثله مثل بونابرت، فقد انتهز الفرصة ليرسل إلى قنصل فرنسا مع هذه السفينة خطاباً بنفس فكرة خطابات القائد الأعلى<sup>(٣)</sup>.

وبخلاف حالات الاشتبكات، فإن أمن الأفراد واحترام الملكيات قد تمت حمايتها ضد العنف والتحقير والاختلاس. وقد تزود قادة الجيش الفرنسي في مصر بروح الإنسانية والأمانة والأخلاقيات العالية. وعندما أدى الاضطراب إلى فرض ضريبة

---

= إلى الوجيه الحاج قاسم زكيوف، منفذ القوانين ..... ١٤٠٠

إلى الوجيه الحاج محمد ضيا، منفذ القوانين ..... ١٤٠٠

وإلى الساعين ..... ١٨٤٨

(١) راجع بايول المرجع السابق صفحة ٣٠٣، ٢٩ أغسطس ١٧٩٨.

(٢) راجع لاجو نكيير المرجع السابق المجلد الثاني صفحة ٥٠٦ وبايول المرجع السابق

صفحة ٣٠٠.

(٣) راجع بايول المرجع السابق صفحات ٣٠٣ - ٣٠٤. «المواطن القنصل، إن غزو مصر عن طريق جنود الجمهورية الفرنسية لا يجب أن يضع عقبات في علاقاتنا السياسية والتجارية مع السلطات البربرية، بل على العكس من ذلك، يجب أن تحييها وتوسعها. إن سكان هذه الشيطان سيجدون دائماً لدى الحكومة مساندة وحماية، وكما فيما مضى، فإن ديانة المسلمين ستحترم بشدة. لكن اليوم فلا هم ولا ثرواتهم سيتعرضون للابتزاز الذي كان يقوم به المماليك المخادعون الأشرار، الذين كانوا يقومون به أيضاً ضد الحجاج أثناء رحلتهم إلى مكة وضد الذين كانوا يعيشون هنا من نتاج صناعتهم وتجارتهم».

على المسلمين، بدلاً من العقوبة، كان كليبر أول من اقترح على بونايرت أن يعيدها لهم عندما تتحسن تصرفاتهم العامة<sup>(١)</sup>. وعندما وجد أن الانتقامات التي أمر بها بونايرت كانت شديدة للغاية قام بمناقشتها معه بحيث أدت إلى خلاف بينهما. وكتب منو في نفس الوقت: «لا شك أننا سننجح أكثر إذا ما حكمنا بالعدل والأخلاق... إن استقرارنا في مصر متعلق بأخلاقيات القادة الفرنسيين»<sup>(٢)</sup>.

وقام نفس الجنرال بالكتابة إلى المنفذ العام سوسى Suci<sup>(٣)</sup>، وهو غير راض عن الطابع الضريبي لبعض الإجراءات الإدارية قائلاً: «مع سكان مصر يجب أن تكون صارماً عادلاً إنساناً وعبداً لكلماتك. إذ كان القادة في كل مكان هنا لديهم أخلاقيات ويعاقبون بقسوة صارمة كل المبذرين سنقيم هنا أول مستعمرة نموذجية في العالم. وإذا ما وقع العكس، وإذا ما كان القادة سواء العسكريون أو غيرهم، وكذلك رؤسيتهم، ينظرون إلى هذا البلد على أنه أرض للالتهم، فلن نبق هنا أكثر من ستة أشهر ولن نصحب معنا إلا الخجل وكراهية شعوب مصر». ومن بلبيس في الشرقية، أرسل رينييه إلى بونايرت قائلاً: «لست على استعداد لأن أتحمّل من حولي أى نصب أو تزوير، خاصة في بدايات تنظيم البلد الذي يجب علينا أن نكتسب جانب الأهالي بفضل إدارة رشيدة»<sup>(٤)</sup>. وعند عشوره على مآخذ في إدارة الجنرال فيال Vial في دمياط لم يتورع الجنرال دوج Duges عن إعلانها بلا أى تأخير لبونايرت وأنهى تقريره بهذه الكلمات: «إن الشخص الذي يتركك تجهل أن الأتراك يكرهوننا في دمياط يكون مذنباً، مثله مثل الشخص الذي يتركك تجهل السبب»<sup>(٥)</sup>. وفي مصر

---

(١) راجع بايول المرجع السابق صفحة ٢٩٩ - ٩ أغسطس.

(٢) ٦ فروكتيدور ٢٣ أغسطس و٨ فروكتيدور ٢٥ أغسطس راجع لاجونكبير المرجع السابق المجلد الثاني صفحات ٥١٧ - ٥١٨.

(٣) ٧ فاندمبير - ٢٨ سبتمبر. راجع لاجونكبير المرجع السابق المجلد الثالث صفحة ١١٩.

(٤) ١٧ فروكتيدور - ٣ سبتمبر. راجع لاجونكبير المرجع السابق المجلد الثالث صفحة

. ١٧٧

(٥) ١٢ فاندمبير - ٣ أكتوبر. راجع لاجونكبير المرجع السابق المجلد الثالث صفحة ١٥٥.

العليا وبينما ديزيه Desaix كان مازال فى فترة الغزو، فضع بعبارات ثائرة حركات بعض اللصوص الذين حاولوا سرقة بعض البضائع من سوق المنيا دون أن يدفعوا ثمنها، وقام باتخاذ إجراءات صارمة ضد هؤلاء الحقراء<sup>(١)</sup>.

فلم يكن إلا مثل بونايرت أن يعطى، منذ أول لحظة احتكاك بين فرنسا وشمال أفريقيا مع الإسلام، أكمل النماذج لإدارة محلية وسياسة دينية جديدة تماماً، ومدفوعة إجمالاً إلى أقصى حدود تم تحقيقها آنذاك، وعلى أى حال لم يتخطاها أحد. إلا أن الإخضاع والتهدئة والتحالف التى كانت تهدف إليها هذه السياسة المحلية والدينية، كانت هى نفسها تهدف إلى إمكانية تحقيق الهدف الاستعماري الذى كان مسنداً إلى الحملة الفرنسية، فى الظروف الأمنية المطلوبة والاستقرار. غير أن تنفيذ نفس هذا المخطط، الذى ساندته على التوالي حيوية بونايرت ونشاطه، لم يمكنه الا يؤثر بدوره على استعدادات الأهالى تجاه السيطرة الفرنسية.

فرانسوا شارل-رو

\* \* \*

---

(١) ١٢ فاندمبير - ٣ أكتوبر. راجع لاجونكيير المرجع السابق المجلد الثالث صفحة